

كلير ماران

القطيعة



كيف تغيّرنا
في العمق

ترجمة وتقديم
د. مصطفى حجازي

المركز الثقافي العربي



كلير ماران

القطيعة

كلير ماران

القطيعة

كيف تُغيِّرنا في العمق

دراسة تحليلية نفسية وجودية

ترجمة وتقديم

د. مصطفى حجازي



المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للكتاب:

Claire Marin

Rupture(s)

© Éditions de l'Observatoire/

Humensis, 2019

All rights reserved

الكتاب

القطيعة

تأليف

كلير ماران

ترجمة

د. مصطفى حجازي

الطبعة

الأولى، 2022

الإيداع القانوني:

2022MO0912

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9920-657-36-5

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: +212 522 305726

Email: markaz.casablanca@gmail.com

«نحن أصلاً ولا يمكن كسرنا ما
بين عشية وضحاها»⁽¹⁾

نيتشه

محاسن التاريخ ومساوئه

Nietzsche, *Seconde considération intempestive*, Flammarion, GF, (1) 1988, p. 96.

المحتويات

9	- مقدمة المترجم
	- المقدمة: حياتنا ليست سوى مجموعة من حالات
21	القطيعة
37	1 - الإخلاص المستحيل للذات وللآخرين
47	2 - القطيعة الغرامية
87	3 - أن نصبح نحن ذاتنا
101	4 - لذة التشُّت
119	5 - الكائن المصاب بحادث
125	6 - حالات الولادة والانفصال
137	7 - القطيعة مع الأسرة
151	8 - حالات اختفاء
165	9 - جنسانية القطيعة
173	10 - عبور الليل
177	11 - فسخ العقود
185	المراجع

مقدمة المترجم

كتاب كلير ماران بعنوان القطيعة (*Rupture(s)*)، والصادر في العام 2019، غير مسبوق في شمول معالجته لموضوع القطيعة. هناك العديد من الدراسات المتفرقة حول هذا الشكل أو ذاك من القطيعة والانفصال والهجر. إلا أن هذا الكتاب يحيط بجميع حالات القطيعة ويقدم تحليلاً سيكولوجياً ووجودياً حول كل منها، مستنداً على دراسات ثمينة ومتنوعة من قبل العديد من الفلاسفة والعلماء والأدباء والرواة، مع شهادات حية من كلٍّ منهم بصدد تجربة قطيعة مرَّ بها، وعانى من آثارها. يستوي في ذلك سواء أكان الشخص هو من بادر إلى القطيعة أو كان ضحيتها. إذ إن القطيعة، وأياً كان نوعها وأياً كانت ظروفها، لا تمرُّ مرور الكرام، وكأنها حدثٌ من أحداث الحياة الشائعة. إنها تترك آثارها وحتى بصماتها عميقاً في نفس كل من الفاعل والضحية على حدٍّ سواء. المؤلفة كلير ماران هي فيلسوفة وأستاذة فلسفة في الآن عينه. وتُظهر في عملها هذا قدرة فريدة على الغوص في النفس البشرية وأحوالها ومعاناتها، بحيث تكشف للقارئ عن جوانب خفية

مما يعيشه، أو ممّا شهدته عند المحيطين به، دون أن يستوعبه معرفياً وعقلياً، وإنما هو يعاني آثاره على شكل أزمة كيانية فعلية تعتمل في نفسه بالخفاء، ولا يطفو منها على السطح سوى مشاعر المعاناة. وهكذا لاقى هذا العمل منذ نشره في العام 2019 إقبالاً غير مسبوق بالنسبة إلى كتاب فلسفي، حيث طُبِع منه ثلاث طبعات في العام ذاته. كما كان موضوع تحليلات عديدة من قبل الصحافة الثقافية، يضاف إليها العديد من المقابلات في الدوريات الثقافية الأسبوعية والشهرية مع المؤلفة. ومن هنا أهمية هذا العمل محدود الحجم عظيم الكشف بالنسبة إلى القارئ العربي، ما يشكّل إسهاماً طيّباً في المكتبة العربية، يُسلّط أضواءً تذهب في العمق على موضوع يشكّل جزءاً لا يتجزأ من الحياة ذاتها عند مختلف شرائح البشر على اختلاف السنّ والجنس. لا بدّ في البدء من وقفة سريعة عند مفهوم القطيعة ذاته والفارق بينه وبين كل من الانفصال والهجر والافتراق. القطيعة تشكّل الحالة الأشد أثراً على الصعيد الوجودي، من مختلف التعابير الأخرى التي تستعمل بمثابة مرادفات.

تعني القطيعة على صعيد القاموس اللغوي انقسام شيء إلى جزئين أو أكثر، أو حالة انكسار وتشقّف تحت تأثير قوة معيّنة، وكذلك انقطاع رباط، أو تمزقه. كما يعني تغيير خطير في وضعية الأشياء، أو فقدان التوازن. وبذلك تدلّ القطيعة على انفصام وحدة كيانية، من قبيل الوحدة الكيانية بين

عاشقين أو الوحدة الكيانية بين الفرد وأسرته (النحن الأسرية).
 إننا بإزاء حالة من الفصل الجازم بين مكونات كانت تشكل
 وحدة كلية، تحت تأثير صدمة، من قبيل انهيار أحد السدود.
 الكيان الكلّي يتمزق خالقاً حالة جديدة في طبيعة هذا الكيان.
 أما على الصعيد الإنساني فتعني القطيعة اعتبار التزام كياني
 معين بمثابة منته أو معدوم. أما مصطلح الانفصال الذي يعتبر
 المرادف الأكثر قرباً للقطيعة، فينفي واقعة الترك أو المغادرة،
 من قبيل الانفصال الزوجي بالتراضي، أو فصل الملكيات
 واحتفاظ كل طرف بملكيته الخاصة. والفصل هو الحاجز بين
 شيئين، الانفصال هو عكس الاتحاد. والانفصال عن الأهل
 بمعنى الخروج والابتعاد عنهم، وكذلك الهجر من دون
 طلاق. ومنها حرب الانفصال بين كيانيين كانا متّحدين سابقاً.
 الانفصال هو إذاً تكريس التفريق بين كيانيين كل منهما قائم
 بذاته؛ في حين أن القطيعة هي انقسام كيان قائم بذاته وتمزّقه.
 من هنا فالقطيعة هي أعمق أثراً على الصعيدين النفسي
 والوجودي، بحيث لا يعود الوضع كما كان. ولذلك فهو
 أعمق أثراً، ولا يمرُّ من دون أزمات وجودية تتضمن حالة
 تحول كياني. فما بعد القطيعة ليس كما قبلها. ومن هنا يأخذ
 هذا العمل كامل أهميته حيث يغوص في تحليل مختلف
 جوانب الأزمة الكيانية بشكل شمولي غير مسبوق في عمقه
 والوقوف عند مختلف جوانبه التي تولد حالة كيانية غير مسبوقة
 من التمزّق.

يندر أن تستعيد القطيعة معالم الكيان كاملاً، من قبيل تمزق الحياة المشتركة وتمازج الهويات المتبادلة التي تخلق هوية قائمة بذاتها يجد كل طرف ذاته فيها. وكما تقول المؤلفة، فالقطيعة هي أشبه ما تكون برقم غير قابل للقسمة الصحيحة، أي القسمة التي يتبقى منها كسر معيّن فينا. فليس هناك من مجال لطّي الصفحة نهائياً، بل هناك حضور خفي أو علني يُصرّ على الاستمرار. إنها بتر في العمق يغيّر النظرة إلى الذات والوجود والعادات والشكل، وكيفية الحضور: لقد كنا متمازجين معاً وها قد أصبحنا كائنين مبتورين وجودياً. فالقطيعة تنزلُ بنا، تبعاً للمؤلفة، كلوماً نفسية وحتى جسدية صعبة الاحتمال، كشرط للهوية ودلالة الوجود. القطيعة المفروضة علينا تضع كياننا موضع التساؤل: هل نحن غير جديرين بحب الآخر وتقديره لنا؟ كما أن القطيعة الظاهرة ندر أن تكون مفاجئة، بل يسبقها تصدعات خفية عديدة تعمل بصمت معلّن عن الآتي: ففي القطيعة الغرامية، كما في سواها، هناك دوماً تمزق يعتمل ببطء، مولّداً حالة انفصال، وغربة علائقية جوانية قبل الانفجار أو الظهور الصريح. ولكن تبقى هناك دوماً أجزاء من الآخر وآثار من التاريخ الماضي. فمن انفصل عنا ينتزع جزءاً من ذاتنا. وقد تولّد القطيعة نوعاً من الجرح النرجسي الذي يثير تساؤلات حول دلالتنا ومكانتنا وتاريخنا المشترك وأحلامنا ورؤانا المستقبلية، وفقداننا لعالمنا المألوف. وهناك العديد من حالات القطيعة في الحياة.

فالقضية والانفصال هما أحد شروط الوجود الإنساني وحالاته: الميلاد، المرض، الوفاة، الخيانة، الهجر، التمرد على الأسرة التي تديننا في كيانها وتمنعنا من أن نكون ونصير ذاتنا. وهنا تطرح القضية ليس بمثابة محنة، وإنما بمثابة استرداد للذات الأصيلة وإطلاق طاقاتها ومبادراتها وتحررها من الإسار الذي يستلب الكيان. فقبل هذه القضية التحررية لا يكون المرء هو ذاته ولكيانه الذاتي، وإنما يكون كما يريد له الآخر أو الآخرون أن يكون، أي أن يكون مجرد جزء من مشروعهم هم. كما هو الحال في العلاقة التملكية بين أم وطفلها. فهي تتفانى في خدمته ليس كي يكبر ويصير (أي يستقل) وإنما كي يظل مجرد تابع لها، وأداة لإرضاء رغباتها. فإذا تمرّد تعتبر ذلك عقوقاً وخيانة ونكراناً للجميل وللتضحيات المبذولة من أجله. تلك علاقة مرضية نفسية تتخذ اسم الحب التملكي المتفاني. إلا أن ذلك يمنع الطفل من أن يكبر، أي يبني كياناً لذاته يحمل مشروع وجود وضرورة نابعة من ذاته.

كذلك هو شأن القبول المشروط ليس في العلاقة الأسرية أو مع الأم، وإنما كذلك في مختلف العلاقات: أنت محبوب ومرغوب ومقبول وتحظى بالعناية والاهتمام والتقديمات طالما تكون كما يُرادُ لك أن تكون. وما يُراد لك هو في الواقع أن تكون أداة لتحقيق رغبات وأمنيات الطرف الآخر، القبول المشروط يُزوّر التجربة الوجودية إذ يحوّل الشخص إلى مجرد دور أو وظيفة برانية تنكر للذات الأصيلة وتوقها إلى الانطلاق

وبناء كيان ذاتي أصيل . هنا تتخذ القطيعة مع هذه العلاقة التملكية أو المشروطة طابع التحرر من الاستلاب الذاتي أو الشرنقة الحامية، أو سجن الحب والقبول المشروط وصولاً إلى مشروع إطلاق طاقات الحياة النابعة من الدوافع الجوانية الأصيلة ذات الهوية الفريدة . ولكن هذا التحرر لا يمرّ من دون معركة صعبة، أو شرسة حتى . كما لا يكون دون أن تولد مشاعر الذنب أو الخيانة أحياناً: خيانة العهد، أو التنكر للتضحيات الجسام . ولذلك لا تمرّ القطيعة التحررية مرور الكرام سواء بالنسبة إلى الشخص ذاته، أو إلى من تمرّد عليهم أو انفصل عنهم . إنها تتخذ أحياناً معنى القتل المعنوي، ليس للشخص أو الأشخاص ذاتهم، وإنما قتل تلك العلاقة التي تخنق الكيان .

خلاصة القول تدرج القطيعة وكل درجاتها من انفصال وفراق وسواهما ضمن جدلية الذوبان/ القطيعة، وجدلية الحميمية/ الانطلاق في العالم الرحب . وهي جدلية مميزة لطبيعة الحياة ذاتها، التي لا تعدو كونها سلسلة قطائع على مسار التاريخ الشخصي، وعملية النماء والتفرّد الكياني والصيرورة الأصيلة . إنها جدلية فاعلة على مدى مراحل الحياة . نندمج في علاقات متفاوتة في إسارها للذات، ونجهد كي نفصل ونجد كياناً ذاتياً . وكلما تزايد الاندماج يتحرك دافع الاستقلالية والتحرر من شرنقة العلاقات الذوبانية . وبالعكس، كلما زاد التوسّع والتباين تتحرك آلية التقارب والاندماج . من

هنا معاناة القطيعة على اختلاف ألوانها ودرجاتها . ولا تجدُ الحياة توازنها إلّا من خلال اشتغال جدلية الذوبان/ القطيعة هذه . كما أنها لا تجد توازنها إلّا من خلال اشتغال الحميمية الذاتية/ الانطلاق والتوسّع في مسار النشاط الحياتي عموماً . وإذا اختلّ توازن هذه الجدلية تتحول الحميمية المفرطة إلى نوع من السجن المُقيّد للانطلاق . وبالمقابل كلما تمادى الانطلاق يفقدُ الوجود توازنه ، إذ يتحول إلى حالة من الضياع على غرار الملاح التائه . القطيعة وأخواتها هي بالتالي من صلب جدلية الوجود ذاته ، وليست بالضرورة خيانة أو عقوقاً ، شريطة أن تتكامل مع الركن المتمّم لها ضمن جدلية التوازن الوجودي ذاته . وكما أن الاندماج الذوباني هو شرنقة تخنق انطلاق طاقات الحياة ، فإن القطيعة المحض هي بدورها حالة ضياع ، حيث الروابط والصلات هي من المكونات البنيوية للوجود الذي يتصف بالنقص المتمثّل بالتوق للآخر ، من ضمن جدلية الاعتراف المتبادل ، والرغبة في أن نكون موضوع رغبة الآخر .

تأخذنا كلير ماران في جولة فائقة الغنى ، تستكشفُ فيها بالعمق مختلف حالات القطيعة في الحياة في ألوانها وشؤونها ، وخصوصاً في شجونها ومعاناتها ، ومآلاتها ، مبرزة خفاياها النفسية والوجدانية وتحولاتها ، ممّا لم يسبق لأي عمل آخر في الموضوع أن قاربه بهذا العمق والجدليات النفسية والشمول . وليس ذلك بغريب إذا تذكرنا أن الحياة ذاتها هي أغنى بما لا يقاس ممّا يبدو على السطح ، وأنها

تستعصي في الأصل على الاختزال الشائع في مجرد عدد محدود من الكليشيهات المبسّطة.

أتت جولتها في أحد عشر فصلاً. يبدأ بالإخلاص المستحيل للذات وللآخرين. فالإنسان عبارة عن تاريخ وصيرورة ويستحيل أن يبقى على ما هو عليه. تشكّل مراحل حياته سلسلة من القطاعات مع ما كان، وتطلّعاً إلى ما يكون. والأمر ذاته ينطبق على العلاقة مع الآخر حيث إنّ التغيير والتجديد هما المبدأ الحاكم كيانياً. ولا بدّ للمرء إذا أراد النماء من كسر الشرنقة التي تسجننا فيها العلاقة التملّكية مع الآخرين وما تفرضه علينا من أدوار وتوقعات على حساب عيش كيان ذاتي أصيل.

أما الفصل الثاني فيعالج بالعمق أحوال القطيعة الغرامية لجهة تبيان دلالتها العميقة لكلّ من الطرفين. فابتعاد الآخر يحرمني من غلاف الحب الذي يحميني ويطمئنني. وابتعادي عن الآخر هو انفصال عن الذات القديمة التي لم يعد بالإمكان الاستمرار فيها. وفي الحالتين يعيش كل من العاشقين حالة من الانسلاخ عمّا سبق أن كاناه، قد لا يمرّ مرور الكرام، بل يستمر زمناً يطول أو يقصر، مع ذكريات متفاوتة في تكرارها وشدّتها ونوعها.

اتخذ عنوان الفصل الثالث: أن نصبح نحن ذاتنا. ويعالج التمرد على الامحاء أمام إملاءات الخارج، حيث لا يعود المرء يتحمل ما هو عليه ويتحتم التحول إلى كيان وجودي

آخر، ودنيا أخرى، والتخلُّص من التماهيات المفروضة، وصولاً إلى صناعة ذات حقيقية والعبور إلى هوية جديدة. وهو ما يشكّل دوماً قطيعة مؤلمة وأزمة حقيقية.

وتلاه الفصل الرابع بعنوان لذة التشبُّث. إذ إننا قد لا نكون مخلوقين لأننا واحدة فقط، وإنما تتعدد أحوال وجودنا، كما نلعب ما لا يحصى من الأدوار الوظيفية: الزوج، الأب، صاحب المهنة، رفيق السهر والسمر... فالثبات على حال واحدة هو نوع من الموت الوجودي عينه.

يعالجُ الفصل الخامس التجربة الوجودية للكائن المصاب بحادث. فيعرض كيف تغيّر الإصابة الجسدية الوجود المعتاد، وكيف أصبح كائنات مغايرة بسبب الإعاقة، وكيف نجدُ نمطاً جديداً من الكينونة، ونكتشف جوانب من كياننا الجسدي كانت في الظل.

أما الفصل السادس فيعالج تجربة الحمل والولادة وتحولات جسد الأم. وما يليه من انفصال الكيان الواحد (الأم وجنينها) إلى كائنين منفصلين. ولكن الولادة وحدها لا تكفي بل لا بدّ من السماح للمولود الجديد أن يكبر ويحتل مكانه في الدنيا. ينفطم عن أمه، وتنفطم الأم نفسياً عنه. ومن دون هذا الفطام المزدوج بيولوجياً ونفسياً لن يكون هناك كيان مستقلّ ونماء. تتعطل عملية النماء بمقدار إصرار الأم على الاستمرار في إدماج الطفل في كيانها.

وأتى الفصل السابع بعنوان القطيعة مع الأسرة. وهو

يشكّل نوعاً من استمرار عملية الاندماج، وإنما نكون هنا بصدد الأسرة التي تدمجُ أبناءها في كيائها، فلا تسمح لهم أن يكونوا كيانات مستقلة، وتفرضُ عليهم أدواراً تخدم كيان الأسرة وليس كيانهم الذاتي. هنا لا بدّ من قطيعة نفسية تتخذ شكل تحرّر من الشرنقة الأسرية، وصولاً إلى بناء كيان له فرادته. وهو أمر قد يمرّ بأزمات لا يُستهان بها في هذا النمط من الأسر التملّكية التي لا تعترف سوى بكيانها متّخذة من الأبناء وسيلة لتوسيع هذا الكيان.

ويعالج الفصل الثامن موضوع مرض الألزهايمر وتحولاته، وما يتضمنه من قطيعة مع الذات والآخرين. فالمريض لا يعود يعرف ذاته، ولا يعرف المقربين منه. تقدّم المؤلّفة تحليلات غير مسبوقة لتحولات مريض الألزهايمر الحي جسدياً والميت ذاتياً وعلائقياً. كما تحلّل معاناة الأقارب المؤلمة والعنيفة، والتذبذب ما بين ذكرى ما كانه وما كانه معاً، والغرابة تجاه ما هو عليه الآن.

تخوض المؤلّفة في الفصل التاسع موضوعاً غير مألوف حول تفجّر الغرائز الجنسية التي تحدث أحياناً بعد قطيعة غرامية في نوع من الثورة التحررية الحيوية على سجن العلاقة الماضية ووهم القطيعة الجذرية معها، والذي يحملُ على المستوى اللاواعي تحرك نزوة الموت فيما يتعدى نزوة التفجّر الجنسي.

أما الفصل العاشر فاتّخذَ عنوان عبور الليل. حيث تقدّم

لنا المؤلفة تحليلاً جميلاً للأرق الليلي باعتباره يمثل العجز عن طي صفحة الماضي ونسيان ما سبق. وإلحاح ذكريات ما قبل القطيعة وأزماتها التي ترفض الزوال، بل هي تقض مضاجع المرء وتدخله في عذابات تعذر النوم والسكينة. ذلك أن القطيعة في العلاقات الحميمة والأولية ليست أمراً إجرائياً يسوى ببساطة من خلال تفاهم أو صفقة.

وتنتهي المؤلفة في الفصل الحادي عشر بعنوان «فسخ العقود». وهو فصل طريف وغني بتحليلاته النفسية: فكل إنسان كي يطمئن على واقعه وحياته وسلامته، يعقد عقوداً خفية مع الآلهة أو القدير أو حسن الطالع، تضمن له السلامة والحماية وتفادي الفواجع، من قبيل القول ليس من الإنصاف أن نصاب بكذا... (التنكر لإمكانية الحادث، أو سوء الطالع أملاً بالحماية وتجنب قلق الخطر). إلا إن هذا العقد الضمني هو مسألة وهمية وآلية نفسية دفاعية تمكّننا من الاطمئنان على سلامتنا. إذ ليس هناك من سور واقٍ، ولا عقد ضمني يضمن لنا السلامة. وعندما يُفسخ هذا العقد الوهمي نشعرُ بالغبن غير المستحق (يا رب ليش عملت هيك فينا؟)، فكيف يمكن التحلي بشجاعة الحياة وانطلاقها وخوض غمار معركتها في حالة من انعدام الضمانات واليقين التي نتصورها في العقد الضمني الوهمي الذي نعقده مع الدنيا في نوع من التفكير السحري؟ ذلك سؤال كياني.

يشكّل هذا العمل الفريد في تحليلاته النفسية والوجودية

إسهاماً غير مسبوق في هذا الموضوع وإغناء للمكتبة العربية. ويفتح آفاقاً أمام القارئ العربي في التمكين المعرفي بأحوال العلاقات الوجدانية والحميمة، بما يجعله أكثر وثوقاً في خطواته. فالمعرفة بأحوال النفس وعلاقاتها تشكل أحد أبرز مقومات القوة.

مقدمة

حياتنا ليست سوى مجموعة من حالات القطيعة

كنا نودُّ أن تكون القطيعة انفصلاً صريحاً، مباشراً وحاسماً، وبضربة واحدة، على غرار السيف الذي يقطع الرقاب. إلا أن القطيعة هي تمزُّق. وعلى خلاف الانفصال الذي يتيح لكل طرف أن يستردَّ كيانه كاملاً كما سبق له أن كان عليه، تبعاً للمعنى اللغوي لهذه الكلمة، فإن القطيعة هي حالة تمزُّق. إذ نادراً ما تستعيد معالم الكيان الكاملة لكل منا. إننا لا نقطع الصلة على غرار قصِّ قطعة قماش تبعاً لخطوط التفصيل المرسومة، وبحيث نستعيدُ شكلنا بالضبط. إننا نمزق في القطيعة نسيج حياتنا المشتركة حيث تتمازج الهويات المتبادلة تماماً، وبحيث لا يعود الشخص يدري حقيقة: من أين هو يبدأ وأين يتوقف الآخر. إلا أن من يريد الانقطاع يعتقد أنه يفعل ذلك وهو على بينة من أمره. إنه يعتقد أن باستطاعته أن يرسمَ ظلال ملامح كيانه الذاتي، ويريد أن يتخلَّص من هذه الحالة الفضفاضة ومن حالات الحضور التي تربكه، ومن الروابط التي تمنعه أن يستردَّ ذاته الفعلية.

القطيعة الصافية، الشبيهة برقم قابل للقسمة الصحيحة، هي أمر مستحيل بما لا شك فيه. إذ ليس بإمكاننا «أن نختزل ذواتنا في الزمن، على غرار رقم صحيح، ودون أن يبقى هناك كسر يدعو للغرابة»⁽¹⁾، تبعاً لتعبير نيتشه. يمكن للصلات أن تبقى حساسة، حتى لو تعرضت للانقطاع، وذلك على غرار الإحساس بالذراع المقطوعة الذي يشهد على حياة سابقة. حيث تبقى آثار كل ما رسّخته هذه الصلة السابقة فينا. تلك الآثار التي تغلّغت في نفوسنا، ونُقشت على أجسادنا، وفي أفكارنا، وأساليبنا في الوجود ومقاربة الأمور. أي كل ما يجرّ ذاته، ويتبقى من العلاقة ويستمر سارياً فينا رغماً عنا. إذ من المستحيل حقاً أن نطوي الصفحة مرة واحدة وإلى الأبد؛ حيث نستشف ما سبق أن انغرس فينا، أي حياة ما قبل القطيعة التي تصرّ على الحضور خفية. إذ ليس هناك لوح أسود سحري لا يترك أي آثار عن الرسوم التي تمّ مسحها، حيث يترك المسبار علامته على السطح، ما يتجلى تحت الرسوم الجديدة. إذ يتولّى لا وعينا تذكيرنا بأطياف هذه العلامات، ما يجعل من المستحيل التلهي الكامل عنها.

فهل بالمستطاع حقاً قطع الجسور والانتقال إلى شيء آخر؟ إذ كيف يمكن قطع حالات التعلّق هذه التي أصبحت جزءاً منا على مرّ الزمن، وكيف يمكن انتزاع ذواتنا من عادة

(1) Nietzsche, *Seconde considération inactuelle*, Flammarion, coll. «GF», 1988, p. 76.

حضور الآخر، وجسده، وصوته فينا؟ كيف يمكن الانفصال عن عالمه، وتغيير وضعيتنا، وتعلّم أن نستقلّ تماماً، والتكلّم بلسان أناس آخرين؟ فالقضية مع حياتنا السابقة، هو أن نغير أسلوب نظرتنا وكذلك تغيير عادات جسدنا، وشكلنا. إنه تغيير كيفية حضورنا، ونبرة توكيدنا لذاتنا. تتضمن القضية بترّاً عميقاً يلعبُ فيه الجسد دوراً مركزياً.

القضية هي تجربة فيزيقية، وجسدية. إننا نشعر بآلام القضية التي هي نوع من لوعة الاقتلاع. إنها تمثّل التجربة المجسّدة حسيّاً «لحم العالم» الذي قال به الفيلسوف ميرلو بونتي، وهو مفهوم بدا لي خلال مدة طويلة مجرداً وشاعريّاً. لا تكون الروابط مع العالم ومع الآخرين الذين يحيطون بنا أبداً بهذا المقدار من الحساسية إلّا في اللحظة التي نُتزع فيها عن الآخرين الذين يَعْنُون لنا، وعن أُطْرنا المألوفة، وعن الحياة المشتركة التي انغrust عميقاً فينا، أي التي تجسّدت في ارتباطاتنا. إنها جسدك الذي أصبح غائباً عنا عند الاستيقاظ، وصوتك الذي لم يعد يجيب، كما أنها البيت الذي تهدّم، والسماء التي اكفهرت. إنها ذلك الطفل، وذاك البيت الشرنقة اللذين نشتا قُ إليهما كما لو أننا نشعر بالجوع والعطش. يمنعنا عنف الشوق من النوم، ومن الأكل، ومن العمل والحياة، لأن الحياة توقّفت وانكسرت. لقد كنا متمازجين معاً، وها قد أصبحنا متمايزين عن بعضنا، مبتورين من خلال هذا التمزق وفقدان الجذور. ذاكرة القضية المُتَقَدّة

تصبح جلاًدنا. يتعيّن علينا وصف «شقف الذكريات»⁽¹⁾ المؤلمة هذه، وحرقة القطيعة الغرامية، كما بياض ليالي الاكتئاب، وتباطؤ الذات واختفائها حتى الامحاء. حتى التبخر. فقدان كثافتنا الكيانية، أو على العكس تحولنا إلى مجرد أحاسيس متّقدة، أو لمحات خاطفة لألم لا يعرف إلى مهادنتنا سيلاً.

حتى لو كانت القطيعة إرادية، ومقرّرة عن عمد، وتندرج في عملية توكيد للذات، وتجلّ لهوية كانت مطموسة حتى ذلك الحين، أو تحرّر للذات، فإنها تظل مؤلمة. فليس من السهل أبداً أن نواجه التنكر أو العنف الذي أرغمنا على مغادرة العلاقة، وأن نصبح ذاك الآخر الذي يحطّ من قيمة المقربين منا، رغماً عنا. فليس من السهل أبداً أن نعود إلى رانس (Reims)⁽²⁾، موطننا الأصلي.

كما أنه من الصعب كذلك العودة إلى الجزائر، أو إلى بنوم بنه (Phnom Penh). فالآلام المنفى، والحنين إلى الوطن يشكّلان أثراً آخر منغرساً عميقاً عن حالات القطيعة هذه التي فرضتها الحرب على هؤلاء. فالإنسان الذي يعود إلى البلد «الإنسان العائد»، يفقد البلد الذي غادره، إذ إنه يصبح

(1) Vincent Delecroix, *Ce qui est perdu*, Gallimard, coll. «Folio», 2009.

(2) Didier Eribon, *Retour à Reims*, Flammarion, coll. انظر «Champs», 2018.

غريباً⁽¹⁾. غربته تصبح مزدوجة. فأن نرحل، يتمثل في أن نقطع صلاتنا مرتّتين، أي مع ما كنا عليه ومع نوع من السراب، المتمثل في الشعور بأننا في موقعنا الصحيح في مكان ما. فالرحيل هو نوع من التخلّي عن هذا الارتياح النفسي المصاحب بأن وجودنا مشروع في نظر الآخرين. إنه قطع لأمل أن نحظى بالاعتراف بنا من قبل الآخرين. فيا أيها المنفيون، وعابرو الطوائف والطبقات، والمثليون، ليس لدينا مكان لكم فيما بيننا. يتعيّن عليكم أن تجدوا لكم مكاناً حيث تستطيعون.

نعيشُ جميعاً جروح الحياة، ونمرُّ بتجارب تعذبنا. إلّا أننا لا نستجيب لها جميعاً بالطريقة ذاتها. وسواء تمتّعنا بالهشاشة أو الصلابة الداخلية، فإن عذابات القطيعة تلوي كياننا. فالقطيعة، سواء اخترناها أم فرضت علينا، تنزلُ بنا كلوماً نفسية وجسدية صعبة الاحتمال، إذ يتعيّن علينا تحمل تشوّه هويتنا ووجودنا ذاته، حيث نصبح من خلال هذا التشوّه كائنات فاقدة لنقائها، وذلك رغماً عنا. إننا نصاب بالتشوّه من خلال البؤس أو مشاعر الخجل المصاحبة لكوننا أصبحنا منبوذين، أو من خلال عنف فقداننا للحب الذي كنا نحظى به. أو نصبح مشوّهين حين نتحول إلى قساة، يغادرون من غير رجعة، تاركين

(1) انظر حول هذه المسألة عمل:

Alfred Schütz, *L'Étranger, suivi de L'homme qui revient au pays* (Allia, 2017).

الزوجة والأطفال، ومتنكرين للأهل، وللأصول، ضاربين القانون، والقيَم، والدين، عرض الحائط.

لا يتحمل كل ذلك ويصمد له إلا الأشخاص الأكثر مرونة، الذين يتحمّلون هذه التشوّهات لأنهم يتمتعون بصلابة التكوين. إذ تتمتع بعض بنى الشخصية بالصلابة والمرونة في آن معاً. أولئك الذين يتمتعون بهذه الخصائص سوف يتحملون القطيعة بالحد الأدنى من الأضرار.

حالات القطيعة هذه هي نصيبنا، سواء قررناها أم هي فُرضت علينا. فأن نقطع روابطنا مع العائلة، أو الأصدقاء، أو الحبيب، أو مع بيئتنا، أو تغيير مهنتنا أو بلدنا، أو حتى لغتنا؛ فإن حالات القطيعة هذه ربما قد تشكّلنا أكثر من الروابط ذاتها. ذلك أن تعريفنا لذواتنا يتمثل في المَفَارِق التي نطرقها تاركين خطوط الحياة المستقيمة، كما يتمثل في مخارج الطريق، وفي خرق العقد أكثر من العقد ذاته. فماذا تعلّمنا هذه «الانحرافات» عن ذواتنا؟ وبماذا هي كاشفة لكياننا أو تؤسّس له؟ يكمن ما تعلمنا إياه فيما تُسائل ذواتنا، سواء في حالات نشوة حرية جديدة ملتبسة، أم في آلام الوحدة الناتجة عن القطيعة، وفرض إعادة تعريف ذواتنا أو حتى العدول عن فكرة تعريف الذات أصلاً.

قد لا تكون القطيعة مرئية أو صاخبة بالضرورة، إذ تجرى أحياناً من دون تغييرات صارخة، من خلال قرارات داخلية

صامتة، أو توجُّهات جديدة، وذلك من خلال ترك بعض مساحات الوجود، التي فقدت الحياة. إذ تذبل بعض حالات الوجود والعلاقات مع بعض الأشخاص، من دون تفسير ظاهر. نهجرُ بعض الأمكنة، ونتركُ بعض الأشخاص، ونستقرُّ في نمط جديد من الوجود. فهل نحن في هذه الحالة بإزاء قطيعة حقاً أم أننا بإزاء مجرد تطور، وتحول داخلي، أم طفرة وجودية؟ حتى أن فكرة القطيعة ذاتها مع ما كُنَّاه قد لا تكون سوى مجرد وهم. نكون بصدد قطيعة حقيقية عندما يتمُّ تحول عميق في صمائم فعل الشخص وتفكيره. أي عندما نقطع الصلة مع ما يمكن أن نطلق عليه «عادتنا في الوجود»⁽¹⁾. ولكن إلى أي حدٍّ يمكن أن أصبح مغايراً لما أنا عليه؟ وبأي مقدار أنا بحاجة إلى ذلك؟ قد نكون بصدد حاجة حيوية، مسألة بقاء نفسي كياني. أتخلَّصُ عندها من الآخر كي أسترِدَّ ذاتي أخيراً. هنا تمثِّلُ القطيعة شرطَ ولادتي، وكذلك انبعاثي من جديد.

يتعيَّنُ علينا أحياناً أن نقطع الوشائج كي ننقذ جلدنا، أي أن ننقذ ذاتنا من خلال القطيعة مع ما يهدِّد وجودنا أو يمنعه من التحقق. وقد يتمثِّل ذلك في الآخرين، ولكنه قد يكون أحياناً نحن ذاتنا، مَنْ نراقب ونقمع أنفسنا من الداخل. ويتعيَّن عندها أن نخلق من خلال القطيعة شروط ظهور الذات

Flannery O'Connor, *L'Habitude d'être*, dans *Œuvres complètes*, (1) Gallimard, coll. «Quarto», 2009.

وتحقيقها. تكشف لنا القطيعة في هذه الحالة الشخص الذي نريد أن نكونه، كي نوجد بذاتنا، ولا نكون مجرد إمعة أو خيال ظلّ. أي أن نتحمل مسؤولية هويتنا الكيانية في كل ما قد تتضمنه من مزعج، أو محيط أو حتى مستحيل بالنسبة إلى الآخرين، والأقارب منهم على وجه الخصوص. أي عمل رهان أن نصبح مغايرين، ممّا تتمثل شروط تحقيقه في إجراء القطيعة.

ولكن ماذا يحدث عندما تكون القطيعة لا إرادية، ومفروضة علينا، وتعاش بمثابة مصيبة أو فاجعة أو مأساة؟ فما يطلق عليه أحياناً «فترات وجود معلقة» -من مرض واكتئاب وحداد- هي ليست كذلك، فهي تولّد غالباً تغييراً عميقاً في طريقة العيش والتفكير، وتشكّل في حدّ ذاتها مبدأ القطيعة، يمكننا التعرّف إليه، والمطالبة به، بهدف حياة جديدة، وكأن معمودية النار هذه تطهّرنا، وتخلّصنا من حثالات الوجود، ولكن بإمكاننا أيضاً أن نتنكر له ونغلق ملفّه وكأنه مجرد تجربة لا عواقب لها؛ حيث يقفل الملف وتحفظ القضية. إلا أن الشرخ الذي أظهرته المأساة يستمر في الاتساع بصمت، والصدوع التي تصيب كل فرد ما هي إلاّ مقدمات لحالات قطيعة مقبلة. فالطفل المصاب سوف يُصيب بالهشاشة الراشد الذي سيكونه مستقبلاً.

وإذا كانت بعض الأحداث تولد ألواناً من القطيعة، أفلا تكون مجرد عامل مفجّر لها، أو مجرد ذريعة؟ أولم يكن

الصدع الحميم حاضراً في النفس منذ مدة طويلة من الزمن،
 وجاهزاً للتوسّع والانتشار وعاملاً على تفجير وحدة الأنا؟
 غالباً ما نفكر في الشخص الجديد الذي ينبثق من قطعة
 وجودية وكأنه مارد أفلت من قمقمه. نتحدث عن «بعث
 جديد»، وعن «انطلاقة جديدة». تتكاثر التعابير للإشادة بهذه
 الفرصة الثانية المُعطاة للشخص كي يصبح هو ذاته بشكل أكثر
 زخماً وأصالة. وكأن القطيعة أتاحَت للشخص أن يتقرب من
 ذاته الأصيلّة التي سلبته إياها الأسرة أو المجتمع أو العالم،
 وأبعدته عنها. قد يكون هناك وهم أساسي في هذه الجدلية
 الإيجابية حيث تكشف القطيعة ذواتنا لأنفسنا. نفترض في
 الواقع كأن هناك شيئاً ما من قبيل «الذات»، أي هوية حقيقية
 تتمثّل في الإنجاز؛ هوية يحقّق الشخص من خلالها ذاته في
 تفرّدّها، ويعبّر عن فرديته، ويوسّعها. ولكن أليست هذه
 «الحياة الجديدة»، وتحول الذات هذا، لا يعدوان كونهما شيئاً
 آخر سوى مجرد تعزية، وإعادة بناء بَعْدِيّة ضرورية لتحمل
 المأساة ولإعطاء معنى لعبثية الموت، أو المرض، أو الحادث
 وما خلفه من أضرار؟

تفترض فكرة القطيعة الكاشفة وجود ملامح كيان،
 وجوهر يتعيّن تجسيده، ورسالة يتعيّن تحقيقها، وباختصار
 وجود مسبق لمصير يتعيّن الانخراط فيه. هنا ستيح لي
 القطيعة بلوغ قلب هويّتي من خلال وضعها موضع الاختبار.
 ساعتها سيكون للمعاناة معنى، وسيكون لكل منا هوية ذاتية

خاصة به. ولكن ألا يعدو وجودي كونه حالات هذه القطيعة هي ذاتها؟ ألا أعدو كوني مجرد آثار هذه الحوادث الأليمة، وهذه الصدف التي شكّلها العالم الخارجي؟ أوليس مجموع حالات القطيعة الصغيرة هذه التي لا تتوقف وتمرّ مرور الكرام، هي ما يجعلني أصبح ما أنا عليه الآن؟ عندها سوف نصبح عبارة عن كيانات «تعرّضت للقطيعة» أكثر من كوننا من نمارسها، كائنات سلبية تتلقّى كسور وإصابات حالات وجودنا التي تعيد رسم حيواتنا. ولكن ماذا يعني أن نكون كيانات «تعرّضت للقطيعة»؟ هل أنا مجرد كائن سلبي عندما أتلقّى هذه الضربة، وعندما أتحمّل هذا التمزّق؟ هل أنا ضعيف إلى هذا الحدّ عندما أتحمّل وأعاني؟ تصبح معاجم اللغة أكثر أهمية في هذا المقام من كُتب التنمية الذاتية. إذ تُدكّرنا المعاجم أيضاً أننا «نقاوم القطيعة». فهناك شيء فينا يقاوم القضاء علينا في محنة القطيعة. فالشخص «المقاوم للقطيعة» يكتشف قدرته على المقاومة. فما أتحمّله ينبئ شيئاً ما عن قوتي. ويبقى علينا أن نفهم لماذا ينهار البعض تحت عنف الانتزاع من العلاقة، في حين أن آخرين يتعجّبون من بقائهم أحياء، ولو أنهم انسلخوا عن جزء من حياتهم. فما الذي يجعلني أنكسر من خلال المحنة، أو على العكس أزداد قوة؟ وماذا يمكننا عمله بصدد حالات قطيعتنا على تنوعها؟ وما هي فاعلة بنا بدورها؟

هل ما زال علينا أن نفكر بالطبيعة بعد كل من نيتشه وكيركيغارد⁽¹⁾؟ نعم بالتأكيد، ذلك لأنها غيّرت شكلها، ولأنها أكثر حضوراً، ولأنها قد تكون الشكل الجديد أو الذي سيأتي من وجودنا على وجه العموم. وقد نكون قد دخلنا في عصر من الطبيعة، أو في برهة من الطبيعة مع تاريخنا الماضي. إذ أصبح يتعيّن علينا على الصعيد البيئي وبالتالي الاقتصادي والسياسي أن نعيد التفكير، وبشكل ملحّ، بأساليب عيشنا، وتواصّلنا، وتنقّلنا، وبعاداتنا في الاستحواذ على الثروات، كما يتعيّن علينا التوقف عن التنكّر لاستنزاف موارد الطبيعة التي يقودنا سلوكنا إليه (أي الاستنزاف). فتحمّل مسؤولية الطبيعة عن عاداتنا هذه سيصبح دليلاً على نضجنا، في مواجهة ضرورة التغيّر الحيوي، سواء على صعيد الوجود الفردي، أم على صعيد البقاء الجماعي. إذ إنه يمثل التعبير عن وعينا بمسؤولياتنا وتحملها. كما أنه يتعيّن علينا أن نستوعب عقلاً فكرة التغيّر الضروري، وإمكانية كارثة قادمة، والتوقف عن الاعتقاد بدوام حال العالم على ما هو عليه، أي الاعتقاد بسخاء الطبيعة الدائم. وأن نتقبّل فكرة عدم تكرار تجديد

(1) تناول كل منهما على التوالي مسألة الطبيعة على الصعيد الثقافي والتاريخي لأولهما وعلى الصعيد الأخلاقي والشخصي لثانيهما.

انظر Nietzsche, *Seconde considération intempestive*, Flammarion, coll. «GF», 1998; Kierkegaard, *La Reprise*, Flammarion, coll.

«GF», 2008.

الطبيعة لذاتها، وأنا في مواجهة لحظة قطيعة إيكولوجية [تغير إيكولوجي غير قابل للتجدد]. وهو ما يتطلب العمل على ميلنا التلقائي للتنكر في مواجهة احتمال انقطاعات كبرى تتمثل في فساد وإتلاف (كلاً من الطبيعة أو ناسها) أو في الخسارة النهائية للحياة على الكوكب. يتعيّن علينا مواجهة مخاوفنا الكبرى، والتفكير بتربية على القطيعة مع أساليب عيشنا وتوجهاتنا السابقة.

إلا أننا أيضاً في لحظة قطيعة لأنها أخذت تنغرس منذ عدة عقود في الحياة اليومية، من خلال التمثيل (الطنان والمخادع؟) مع فكرة معينة عن الحرية - أو النزوات وعدم الانتظام: العلاقات الزوجية تتأرجح، الأسر يُعاد تكوينها على غرار تبديل بطاقات لعب الورق، ما يقلل من شأن ألم القطيعة وخطورتها. وهكذا أصبح بالإمكان الانفصال من خلال «التوافق والقبول»... لقد أصبحت القطيعة مجرد إحصائيات تافهة تشي بتفشي الفردية ومطالبة كل طرف بحقه في «السعادة» و«الانطلاق». في عالم العمل، أصبح تغيير المسار، وخصوصاً تحت تأثير الابتكارات التقنية، معيار نوع من الانتقاء الطبيعي والبقاء للأصلح. فخلال مدة نشر هذا العمل والأمثلة التي يمكن إعطاؤها عن الطفرات التقنية، تصبح هذه التقنيات بائدة [نظراً إلى تسارع التحولات والتجديدات بشكل مضاعف]. فالتكيف أصبح يتمثل في أن تكون مرناً [المرونة التكيفية بمثابة الصفة المطلوبة للبقاء في ساحة العمل]،

ومرتحلاً من قطاع إلى آخر ومن مكان إلى آخر، ومن دون تعلُّق بالأشخاص والأمكنة. ما يعني العبور من مستوى من الفهم والتصور إلى آخر، واختراع أنواع جديدة من القوانين لتفسير العالم وزيادة مردوده. ولكن كذلك التحرر من القيود، ومما يعيق حركتنا، ومن أولئك الذين لا يتبعون وتيرة التحولات. أصبحت حالات القطيعة في عصرنا لا ترحم من يتخلف عن الركب.

ولكن إذا كانت حالات القطيعة المعاصرة هذه مرئية، وقابلة للتحديد، فإن كسور الوجود ليست جديدة من ناحيتها. إذ إنها تخللت دائماً حياة البشر. فأي حياة لم تعرف ولم تعان من تحولات، وثغرات، وانحرافات، وفجوات في تاريخها؟ ويتعيّن أن نذكر كذلك الخيانات الخفية، واللحظات خارج التاريخ الشخصي. أوليست كل حياة، كما قال جيل دولوز عبارة عن «جملة مجنونة بعض الشيء، في تغيرات اتّجاهها، وتشعباتها، وانقطاعاتها وقفزاتها، وتمزقاتها، وتكاثر براعمها، وفتراتها المعلقة»⁽¹⁾؟ يتعين أحياناً المعاناة من قطيعة أولى كي نتمكن من رؤية كل ما عداها من قطائع وتحملها. وكما هو الحال عادة، فالمرض يفرض تأثيره الكاشف. فما

Gilles Deleuze, *Critique et clinique*, Éditions de Minuit, 1999, (1) p. 77.

يظهره لنا بشكل مكبر كان حاضراً قبلاً على مستوى خفي في حياتنا اليومية. إننا بصدد تقطّع مراحل وجودنا، وربما حتى أعمق من ذلك تقطّع استمرارية هويتنا. فإذا كانت قصص الحياة الرسمية، والروايات الذاتية اليومية تصقل أوجه خشونة الوجود وتقدّمها بصيغة مقبولة، فليست هناك حياة من دون انكسارات. يقدّم المرض رؤية كاشفة عن ثغرات وجودنا هذه على شكل فواصل مؤلمة، ولكن لا بدّ من الاعتراف بأن كلاً منا قد مرّ بهذه التجارب، أحياناً على شكل خجل نبقية طي الكتمان⁽¹⁾. فالحياة ليست منطقية ومنتما سكة، مصنوعة من خطوط مرسومة بوضوح بشكل مسبق وبمسارات جلية، وأقذار مكتوبة... وإنما هي أكثر تذبذباً، وعدم تأكّد، كما تتصف بعدم التوقع، حيث تهبّ العواصف فجأة على حالات الارتياح، كما تُنقش المآسي وتكرر حتى تصبح مألوفة وتافهة.

سأقاوم في هذا العمل، كما فيما سبقه من أعمال، سواء من قبيل العناد أو عن قناعة تامة، إغراءات التفاؤل، فأكنس

(1) كما تعبّر عنه أوليفيا روزنتال جيداً في عملها المستلهم من مرض الألزهايمر بعنوان *On n'est pas là pour disparaître*, Verticales, 2007, p. 76: «ولكي نسترجع مسار الوجود، يتعين علينا أخذ الصدف، والكسور والخيبات التي تكونه بعين الاعتبار، وهي كلها ليست واضحة للعيان بالضرورة في الروايات الشخصية الرسمية. فالوجود هو عملياً مليء بالثغرات وحالات التفاوت؛ كما يعرف ذلك جيداً كل أولئك المصابين بمرض الألزهايمر».

منذ البدء كل القراءات التبسيطية والإيجابية التي تقول بالبدء من جديد بعد القطيعة. حيث يحلو للمتفائلين أن يروا في القطيعة فرصة بدء حياة جديدة، وصفحة جديدة، فيعطون للفشل قيمة لاحقة من خلال تحويله إلى معرفة، وغنى، وتجربة تقدم لنا دروساً في الحياة. فهل هناك حقاً هذه الفضائل للفشل؟ إذ أن القطيعة لا تعدو كونها أحياناً مجرد خيبة، وجبن، وقلة شجاعة. كما هو حال فشل الرباط الزوجي، أو الأسرة، أو الصداقة، أو السياسة، أو حتى مشروع معين. فالفشل لا يعدو كونه أحياناً سوى هو ذاته [حالة فاشلة]، بائس، ومخيّب للآمال، ومجرد عجز. إذ لا تعلّمنا معظم حالات الفشل شيئاً مفيداً. وأسوأ من ذلك، فنحن ننحرف غالباً في تكرار حالات الفشل ذاتها، وكأنها أمر لا مفرّ منه، وذلك في حالة من متعة تكرارها تكاد تحمل لنا الطمأنينة. يقول لنا التحليل النفسي بضعة أفكار عن هذه الحالة [تكرار الفشل المدفوع بدوافع نفسية لا واعية]. يتعيّن علينا التوقف عن الأمل بالتعلّم والتحسّن من التجربة، حين لا يوجد حولنا سوى القليل من الأمثلة التي تؤكد ذلك.

«الفلاسفة وحدهم، ومنذ الفيزيائيين اليونان الأقدمين، هم من يعتقد بأن الحياة يتمّ تعلمها بالمحاولة والخطأ»⁽¹⁾. فأنا حين أقبل على مغامرة جديدة، لست أكثر صلابة وتمرّساً من خلال

(1) Mathieu Potte-Bonneville, *Recommencer*, Verdier, 2018, p. 35.

الخيّبات السابقة، وإنما أنا مُعرّضٌ للضياع من جديد في دروب الحياة التي تجابهني⁽¹⁾. من الممكن أن لا أكون قد تعلمت شيئاً.

(1) المرجع نفسه، ص 37: «كل انطلاق جديد يوقظ في النفس عشرات المُبتدئ الذي اعتقدت أنني تركتها ورائي».

1

الإخلاص المستحيل للذات وللآخرين

يجبُ أن نتخذ أحياناً اتجاهاتٍ آخر عندما تبدو الطريق التي نسلکها مرسومة سلفاً، ولم تعد ثمرة اكتشاف شخصي، أي عندما تسير أقدامنا بمعزل عن رأسنا وقلبنا. فأفعالي تكشفني، وتحذّذني، كما تجبرني بشكل يتخذ طابع الإرغام أحياناً. إنها تعرّف شخصيتي، وتخلق كذلك شخصاً أودّ التخلص منه أحياناً. تنتج حرّيتي رغماً عنها تأثيرات حتمية تصل حدّ الاستلاب حتى. لسنا بحاجة إلى أن نكون بشهرة سارتر نفسها كي نعاني من مشاعر كوننا سجناء توقعات الآخرين، في حين أن هذه التوقعات ذاتها تندرج عن اختيار اتخذناه بحريّة في الماضي⁽¹⁾. إنها مفارقة الحرية: فما قررناه، بكامل وعينا، وعن قناعة تامة، سواء بشجاعة أو بمتعة، يصبح الأغلال التي

(1) هذا ما يشرحه سارتر في مقابلة أعطاها للتلفزيون الكندي عام 1967 حول مدى عبء التزاماته. إذ سجنته مواقفه السياسية في دور محدد، حيث أصبح مثقفاً ملتزماً، وهو لقب يثقل عليه ويرغمه. انظر مادلين غوبيل-نويل وكلود لانزمان، سارتر غير منشور. مقابلة وشهادات. مقابلة على التلفزيون الكندي (15 أغسطس 1967)، قرص فيديو رقمي، Nouveau Monde éditions، 2005.

تطوّق عنقنا . فرغبتنا السابقة تحولت إلى فخّ . فهل يجب علينا أن ننساق باستسلام إلى القيام بما يتوقعه الآخرون منا؟ سيتحول ذلك بشكل ما إلى التخلي عن ذاتنا : الاستمرار في التصرف كعهدنا السابق، مكتفين بتغيرات طفيفة . وذلك على الرغم ممّا يصيبنا به التكرار من تَقَرُّز، وزوال اللذة؛ وعلى الرغم من الحاجة إلى «الانتقال إلى شيء آخر». وبالمقابل هل يتعيّن علينا المخاطرة بخسارة كل شيء من خلال الانسياق نحو المغاير كلياً؟

لا يعود بالإمكان أحياناً أن نكون أوفياء . إذ يصبح الوفاء نحو الأصدقاء، أو المحبوب، أو الأسرة، أو نحو أنفسنا ذاتها غير قابل للاحتمال . هناك ولاءات لم تعد مجرد روابط، وإنما تصبح حبلاً يضيّق الخناق على الرقاب . ويُقال عندها «أنا أختنق». لا يعود الثبات على العلاقة في هذه الحالة نتاج رغبة داخلية، وإنما يصبح تركيبة مصطنعة، وجهد يضني المرء لكي يظل كما هو، ولكي يقوم بدوره من دون قناعة منه بهذا الدور . إذ لا يعود سوى مجرد ظله الذاتي، مكرراً الحركات التي كان يقوم بها سابقاً خارجاً عن ذاته . لقد أصبح في مكان آخر خارجاً عن هذه الهوية السابقة أو عن هذه العلاقة التي مأتت، إنه يحاكي ما سبق له أن كانه، وبشكل شبه كاريكاتيري . وعلى غرار خادم سارتر في عمله بعنوان الوجود والعدم، فهو يمثل بحيث يصبح محاكاة مثيرة للشفقة . إنه «يضلّل نفسه» بالمعنى الوجودي، يكذب على ذاته، متظاهراً

بأنه غير ما هو عليه، أو غير ما لم يعد عليه. إنه لم يعد ذاته إلا بشكل غامض وفضفاض. أصبح غريباً عن هذه الحياة حيث لديه الانطباع بأنه يموت على نار خفيفة. وعندما يتطلب الوفاء هذا القدر من الجهود، ويصبح العيش تضليلاً نعيد لعبه في كل لحظة، عندها يصبح القيام بأدوارنا المعتادة مستحيلاً. يتعين عندها الفرار وخيانة التزاماتنا.

ويكفي أحياناً اختلاف طفيف، أو اتصال غير منظور كي تنفجر القوقعة ونتحرك من حياة أصبحت خانقة: «تنفجر أشياء أو تجعلنا ننفجر، تصبح العلب أضيق من أن تتسع لمحتواها، تصبح الأطعمة فاسدة أو حتى سامة»⁽¹⁾.

فما كان حتى الآن يغذيني، ويحيطني برعايته، ويحميني، يتحول إلى افتراسي، واستهلاكي. العادة هي وصفة طبية: ولكن على المدى البعيد، يتحول الدواء إلى سم. فما كان يحتويني ها هو الآن يضغط على وجودي، وما كان يعانقني ها هو الآن يخنقني. يعاني الشخص من هذه الهوية التي لم تعد ملائمة. يشتد الخناق على حياته ويسجن وجوده ويعيقه، إنه بحاجة إلى أن يتنفس. يريد أن ينطلق في العالم الرحيب بمعنى يكاد يكون حرفياً. هذه الرغبة في التوسع والانطلاق، و«التمدد»، تجد التعبير عنها بالحاجة إلى تغيير المجال الحيوي، والعاطفي، والمهني، والنفسي. يتعين عليه الخروج

من الصندوق الضيق الذي أصبح حياته، حيث الأبعاد ثابتة، والقدرة على الاستيعاب محدودة. يحتاج عندها إلى الجديد، إلى الحركة، إلى الإمكانيات المفتوحة. أي إلى ما هو حي، وما يحييه.

يحدث أن حدثاً ذا قوة نفسية كبيرة يجعلنا غير قادرين على البقاء على حالنا، وذلك من خلال التحولات العميقة التي يولدها في نفوسنا، ومن خلال الدور الكاشف الذي يشكله بالنسبة إلينا. فبعد لقاء مع شخص يمسنني ويفجّر مشاعري بالحب أو الإعجاب الذي يولده في نفسي، وكذلك بعد مرض أو حادث خطير، أو خسارة عزيز لا عزاء لي فيه، أخرجُ بعمق عن كياني المعتاد ولا يعود بالإمكان البقاء وفيّاً لما كنتُ عليه. هنا يصبح التغيير ضرورياً. هذا التباعد الداخلي عمّا كنا عليه، أو هذا التحول الحميم لا بدّ له أن يتجلّى، من باب الأمانة للذات وواقعها، وكذلك لأنه لا بدّ أن يعاش ويتسجّل في أفعالنا، أي يتعين أن يتجلّى للعالم. لم يعد بالمستطاع أن أظلّ وفيّاً للصورة التي يكونها الآخرون عني، ولا أن أستمّر في القيام بأدوار المعتمدة، فلقد أصبحت مختلفاً تماماً.

عندما يُدعى الشخص ويؤسّر، أو ينتشي بعواطف أخرى أقوى منه -من قبيل الهوى أو الألم الممضّ-، عندما يفقد مرجعيته الذاتية ويعاد تعريفه من قبل قوة تفوق قوته -من قبيل لواعج الغرام، أو الألم، أو الأسى-، لا يعود بمقدوره أن

يظل ببساطة مَنْ سبق له أن كانه حتى الآن. يتعين عليه أن يصبح شخصاً آخر كي ينقذ جلده.

فماذا يستطيع عندها عمله أولئك الذين يحرصون على علاقتهم معه لدرجة التمسك به؟ هل يقبلون تلك اللحظات حيث لم يعد بمقدوره القيام بدوره المعتاد؟ القبول يعني أنهم قرروا ألا يعتبروا ذلك تخاذلاً، بل إنهم أقرّوا بعجزه الحقيقي تجاه هذا الحدث (الوقوع صريع المرض، أو صريع الغرام أو سواهما) الذي يجرفه أو يسحقه بقوته الخارجية ويحوّله داخلياً إلى كائن آخر.

من السهل قول ذلك. هل بإمكانني حقاً أن أنجح في تركه يبتعد عني وعن ذاته، وأن يصبح غير ما كنت أعرفه أو أحبه؟ هل باستطاعتي أن أسمح بمرور هذه المسافة بيننا، وهذا المنفى بعيداً عني وعن ذاته مع خطر فقدانه؟ أوليس هناك ما يغريني على العكس بعمل أقصى ما يلزم كي أبقيه بقربي، وأفرض عليه هويته السابقة، من خلال التعلّل بالاعتبارات الأخلاقية (ارتباطاته نحوي)، وإثارة المشاعر السابقة والذكريات المشتركة بغية سجنه في هويته تلك التي لم يعد يريد التمسك بها، والتي لم يعد بمقدوره لا تحملها، ولا تبنيها؟ قد يكون من العبث اللجوء إلى كل هذه الحيل الماكرة كي أمنعه من عيش ما أصبح مقتنعاً أن عليه أن يعيشه.

لا بدّ من الإشارة إلى عنف أن يصبح الإنسان شخصاً آخر غير ما كان عليه بالنسبة إليه هو ذاته، ولكن أيضاً عنف

هذا التحول بالنسبة إلى الأقارب وإلى أولئك الذين «يتعلقون» به. فالقطيعة تقع رغماً عنهم. لقد تغيّر هذا الشخص بحيث أصبح يبدو لنا أحياناً غير معروف: هل هو ولدي هذا المراهق الذي يتحول؟ هل هي زوجتي هذه التي تركتني من أجل هذا الشاب؟ هل هو أخي هذا الذي أخذ يساند هذا الحزب الذي يشنُّ الحرب على الغرباء؟ من هو هذا الغريب الذي احتلَّ مكان ومظهر الشخص الذي أحببته؟ من هو هذا الصرصار الذي يسرح في غرفة غريغور⁽¹⁾؟ وتبرز كالصاعقة الأسئلة حول تعامينا الذات. كيف أمكنني، أنا من عشت إلى جواره، أن أسيء معرفته إلى هذا الحدّ؟ تفضح إمكانية وحرية أن نكون مغايرين لما كنا عليه، وبشكل جدّ مؤلم، أوهام الحب والعاطفة: وهم القرب من الآخر وامتلاكه، ووهم شفافية هذا الكائن المحبوب. فالألفة لا تعدو كونها أحياناً مجرد انطباع. فبإمكان الآخر دوماً أن يفاجئنا، ويزعزع توازننا، ويبقىنا مصدومين بما قاله أو فعله ولم يكن يخطر لنا مطلقاً بالبال. إذ لم يعد ببساطة ملكي، ولكنه يمكن أن يصبح أيضاً مفاجأة بالنسبة إليّ، أن يصبح كائناً آخر كلياً، مُولّداً في النفس الغرابة المُقلقة^(*).

(1) انظر: Franz Kafka, *La Métamorphose*, Gallimard, coll. «Folio», 1989 (فرانز كافكا، التحوّل).

(*) «الغرابة المقلقة» هو عنوان أحد مقالات فرويد حيث يحلّل حالة المفاجأة والذهول التي تلُم بالمرء تجاه بعض الظواهر التي تفاجئه من حيث لا ينتظر وتثير لديه حالة من القلق صعب الاحتمال. (المترجم)

أحياناً، يكون تحول الشخص هذا فعل تحرُّر. وأحياناً أخرى يصبح تخلُّ عما يغرقنا في طوفانه. يزداد الشرخ. ويصبح القتال غير ممكن. فالقطيعة، وترك الأهل، أو الرفاق، أو العمل، أو مغادرة البلد، تتخذ في هذه الحالات إعطاء الذات حقَّ الانسياق وراء هذه القوة التي تتفوق على ارتباطاتنا، وعودنا، وولاءاتنا. إنها التوقف عن محاكاة هذا الكائن الذي لا نستطيع أن نكونه أو أن نحافظ عليه. كم كنتُ أودُّ أن أبقى مخلصاً، ولكن لم تعد لدي القوة. أحتاج أن أكون مغايراً بشدة تبقيني وحدها على قيد الحياة. كم كنت أودُّ أن أظلَّ ذلك الشخص الذي عرفه وأحبه المحيطون بي، إلا أن المرض حولني، المؤامرة قلبت كياني، سكرات موت قريبي استنزفتني، المنفى صدَّع حياتي، فلم يعد بمقدوري، سواء لفترة محدودة أو بشكلٍ دائم، أن أكون ذلك الشخص الذي كنته. لقد تغلغل الفارق في داخلي. إذ جعل من الإخلاص للذات أو للآخر، مجرد ملهاة وخداع.

لم يعد بمقدوري الحفاظ على لا مبالاة ما قبل المحنة، لا يمكنني التصرف وكأنني لم أسمع هذه الشتائم، أو لم أتعرض لهذا العدوان، وليس بإمكانني التنكُّر لما خسرتَه. أي الخفة، والثقة، والانطلاق نحو المستقبل. لم يعد بإمكانني التصرف وكأن الحدث الذي اجتاح عالمي لم يغيّر توازن شخصيتي الحميم. فالحدث الصادم قد يكون أحياناً قديماً، ولكنه سرعان ما يعود فيتحرَّك من خلال تغيُّر طارئ من قبيل

ميلاد طفل، أو مسؤوليات مهنية جديدة، أو سفر، أو لقاء. هذا الاختلاف يقلب توازن الشخص، على غرار بوصلة اختلّ اتجاهها. من المستحيل بعدها الحفاظ على التوجه الحياتي السابق.

ليس بإمكانني أن أكون على مستوى الثقة التي منحني إياها أقاربي وأصدقائي، ولا على مستوى صبرهم. أشعر أنني مدينٌ لهم، ولكني لا أستطيع إيفاء هذا الدين. لم يعد بإمكانني ولن يعود بإمكانني أن أظلّ ذلك الشخص الذي يتوقعون مني أن أكونه. أكتشفُ عجزِي تجاه قوة مشاعر أخرى، وحاجات أخرى، وارتباطات أخرى. يعني ذلك أحياناً أن أستسلمَ لشياطيني، ولو على حساب غرقي في منطق تدمير الذات. فالقطيعة مؤلمة حين تكون بالنسبة إلى الشخص ذاته خيبة أمل عميقة لاكتشافه أنه عاجز إلى هذا الحدّ. فأنا أودُّ أن أكون على مستوى التوقعات مني، وأن أكون على مستوى آمالي. إنها معاناة أن نخيبَ أمل الآخرين بنا وأن نخيبَ أملنا في ذاتنا، وتعتبرينا مشاعر الخجل إزاء فكرة أننا لم نعد سوى مصدر لخيبة الأمل. «لقد خدعت نفسي كما كنت أعرف أنني سأخدعها»⁽¹⁾، ذلك ما تغنّيه يائسةٌ إيمي واينهاوس، والتي انتحرت بعد ذلك ببضع سنوات. فالعجز عن أن نصبح من نحبّ أن نكونه يشكّلُ مصدر ألم عميق. وتتمفصل القطيعة

Amy Winehouse, «You know I'm no good», *Back to Black*, (1) Universal Records, 2006.

أحياناً مع إغراء الانسياق نحو الضياع. أي الذهاب إلى آخر مدى عملية نعرف نهايتها الكارثية، وقوتها التدميرية. لا نكون هنا بصدد توليد الذات، وإنما بصدد «اختفاء هذه الذات»⁽¹⁾. يشكّلُ تغيرنا أثر العنف الكامن فينا، إنه وصمة اقتحام أدى إلى تحولنا، والذي لا خلاص منه. يحدثُ أحياناً مع الأسف أن نمارسَ القطيعة اتّباعاً لبذرة جنون حميم في ذاتنا، إنه شيطاننا. ففي كل قطيعة، هناك أمل استرداد الذات، وخطر ضياعها.

(1) كما درسه جيّدًا عالم الاجتماع David Le Breton في *Disparaître de soi*, Métailié, 2015.

2

القطيعة الغرامية

«ليس هناك ما يثبت على وجه اليقين،
أن حياة العاشقين جيّدة، وأن القطيعة
حادث مرضي»⁽¹⁾.

فنسن دولوكروا

يتبقى في القطيعة الغرامية شعور يتشارك فيه العاشقان
القديمان بعد الانفصال، ويتمثل في كسرٍ حميمٍ يمَسُّ هويتهما
بعمق. وسواء أكانت القطيعة مقرّرة من قبلنا أو هي أصابتنا،
فإنها تسائل كينونتنا ذاتها أو ما نعتقد أننا نكونه، إنها تزعزعنا
وتضعنا موضع التساؤل. يمكن أن يبرز لدينا الشعور حين
تحدث القطيعة، أنها خطأ تم ارتكابه، وخسارة رهيبة أو أنها
كانت على العكس ضرورية؛ حتى لو كنا ضحاياها، وحتى لو
عانينا منها. بالإمكان أن نعرف أن هناك في قرار القطيعة
والأفعال التي تجسّدها تعبيراً عن حقيقة داخلية لم يعد
بالإمكان أن تظلّ طيّ الكتمان. فالبقاء على ما نحن عليه

Vincent Delecroix, *Ce qui est perdu*, op. cit., pp. 106-107.

(1)

يصبح نوعاً من إنكار قوة التبدّل الذي حدث فينا . إذ لم يعد ممكناً الإخلاص للذات -وللشخص الذي كنا نحبه- لأننا أصبحنا عندها منقطعين عما كُنّاه داخلياً، وأصبحنا غرباء عن أنفسنا من قِبَل كيان آخر . إذ تغلغل موضوع حبّ آخر -سواء أكانت امرأة، أو رجلاً، أو طفلاً، أو عملاً فنياً- بين العاشقين وأحدث فارقاً، أو مسافة وجدانية . أحدثت تجربة جديدة، سواء أكانت سعيدة أو مأساوية، شرخاً في إحساسنا بذاتنا، وحوّلت وجهات الوجود، وبدّلت العواطف . لا يمكن لهذا الزلزال السريّ البقاء على حاله . قد يكون هذا الانقلاب العميق في تعريفنا لذاتنا يعمل في النفس بصمت ومنذ وقت طويل . كان هذا الشرخ وذاك الشكّ بالذات موجودين قبلاً، وتغلغل هذا الآخر عميقاً فيهما بفعل هذا الشرخ .

نستدعي غالباً، من هذا المنظور، الفكرة القائلة بأن القطيعة الغرامية تكشفنا لذواتنا . فهي تمثل عندها تعبيراً عن حقيقة داخلية حميمة، وتوكيداً لهوية جديدة تتناقض مع الهوية القديمة والالتزامات التي أخذناها على أنفسنا . فشدة الإحساس الذي نشعرُ به («أشعر بالحياة من جديد») لا يعدو كونه الإشارة الجلية للعيان إلى الأصالة الذاتية والتطابق معها . ولكن قد لا تكون نشوة الحياة الجديدة مرتبطة بتجليّ هويتنا، وإنما قد ترتبط بالتخلي عنها .

ألا نتعرض أحياناً لإغراء القطيعة بغرض الانعتاق من

تعب كوننا نحن ذاتنا، ومن وطأة صيغة من الوجود نخشى أن نسجنَ فيها إلى ما لا نهاية؟ يعبر فنّ الخط جيّداً عن جمال الكائن غير المقيّد وعن رهافته، وأناقته. إنها الخفة الوهمية لِمَن يجري القطيعة مدفوعاً بأمل حياة أكثر امتلاءً. أوليس من أجل الإفلات من هوية محبّطة مع أنها هويتي بالعمق، أهرب من الحب القديم وكأنه هو المسؤول عن هذه الحالة من إفقار وجودي؟ هذا ما يثيره ميشيل بوتور في عمله بعنوان التعديلات. فبطل الرواية، ليون دلمون، وهو في الآن عينه «أنت» في هذه الرواية، ينظر في إمكانية ترك زوجته هنرييت، من أجل ساسيل، عشيقته الإيطالية. تبدو له القطيعة في البداية بمثابة إمكانية بدء حياة جديدة: «كانت هذه القطيعة ضرورية وملحّة، لأن الانتظار لمدة أسابيع إضافية، سوف يؤدي إلى خسارة كل شيء، وسأقع في جحيم الرتابة التي تطبق عليّ، ولن أجد أبداً الشجاعة ثانيةً. ها هو الخلاص يقتربُ إذاً حاملاً الوعد بسنين رائعة»⁽¹⁾.

ويتكلم الراوي، واصفاً رحلته الأخيرة التي تقوده إلى روما، بلغة «الهروب» من رتابة الحياة. إلّا أن الشكّ يبرز ويترسّخ منذ بداية الرحلة. فالضيق الوجودي لا يرجع إلى طبيعة علاقته بزوجته، وبالتالي فلا يكفي تغيير المكان والرفقة لزواله. إذ إن الشرخ هو في ذاته، أكثر ممّا هو في العلاقة الزوجية:

(1) المرجع نفسه، ص 24.

هذه الرحلة كان يجب أن تكون تحرراً، وتجديداً للشباب، وتنظيفاً كبيراً لجسدك ورأسك؛ ألم يتعين عليك أن تشعر منذ اللحظة بحسناتها وحماساتها؟ ما هو ذلك الضجر الذي يستحوذ عليك، حتى لتكاد تقول إنه الضيق؟ فهل هو التعب المتراكم منذ شهور وسنين، والذي مَنَعَتْهُ من الظهور بجهد لا يلين، هو من ينتقم حالياً، ويحتاجك، مستفيداً من هذه العطلة التي منحتها لنفسك، كما يستفيد المدّ الكبير من أصغر الشقوق في أحد السدود كي يغمر بمراراته العقيمة الأراضي التي حماها هذا السور سابقاً؟⁽¹⁾

هذا السفر ذهاباً وإياباً من باريس إلى روما أصبح حيّز تحرُّكٍ داخلي وانقلب قرار الانفصال إلى ضده: إنه «تحوُّل غامض»، «تبدُّل في الإضاءة»، «استدارة للوقائع»⁽²⁾. شكّلت مدينة روما وتوهم حياة مغايرة ترتيباً متخيلاً لا تعدو أن تكون فيه العشيقة الإيطالية مجرد عنصر من عناصره⁽³⁾. يذبل جمالها في اللحظة التي تخرج فيها من ترتيب الرغبة هذا. فماذا تصبح العشيقة سيسيل فيما لو انغمست في يوميات الحياة الباريسية وشجونها؟ سنكون بصدد هنرييت أخرى. فكل حياة جديدة لا

(1) Michel Butor, *La Modification*, Éditions de Minuit, 1990, p. 23.

(2) المرجع نفسه، ص 236.

(3) انظر المرجع نفسه، ص 238-239: «أنت لا تحب سيسيل إلا بمقدار ما تمثل بالنسبة إليك وجه روما، وصوتها، ودعوتها لك».

تعدو أن تكون في نهاية المطاف سوى تعديل للسابقة. فهل بالإمكان أن نخلق من خلال القطيعة الغرامية وجوداً جديداً جذرياً؟ فعن من، وعن ماذا نستطيع أن نتخلى فعلياً؟

وعلى مستوى أكثر عمقاً، وربما أكثر مأساوية يقطع البعض صلاتهم كي يهربوا من ذواتهم. وهنا تتخذ القطيعة معنى الخلاص: أن لا نعود ذواتنا السابقة. ولا تكون القطيعة عندها بحثاً عن حقيقة داخلية أكثر من كونها إغراء في الوقوع في الفراغ، متعة الامحاء الذاتي أو نكران الأنا، وتحرراً من خلال الاختفاء. فَمَنْ أَهْرَبُ منه لم يعد العشيق القديم، وإنما أنا أهرب من ذاتي. فحبّه لي يرغمني، ويقىدني، ويدرجني في واقع أريد أن أنتزع منه ذاتي. ألجأ عندها إلى أشكال من الحب أنسى فيها ذاتي، تماماً كما يغطس المرء في المياه التي يغرق فيها. في القطيعة الغرامية، غالباً ما نتخيل أن من يقوم بالقطيعة يتخلى عن حياته السابقة، كالأفعى التي تتخلى عن جلدها القديم. إلا أن من ينطلقون بروحية طليقة بعد القطيعة هم الندرة حقيقةً. فمن يمارس القطيعة مع الآخر، لا يعدو كونه في الحقيقة مقطوعاً مثل مَنْ تركه.

نعتمدُ على الحب الجديد كي نتحصّن، وكي «نملاً الفراغ الداخلي»⁽¹⁾. إلا أن التصدّع هو فينا، ولا شيء يُقوّي هذه

(1) المرجع نفسه، ص 274-275: «كل دماء أيامي وترابها تستنزفني من دون جدوى في جهدي هذا كي أوّظّد أركان وجودي».

الهشاشة الحميمة⁽¹⁾. فبدلاً من أن يرمّم الوجد الغرامي التشقّق، فإنه يزيده اتساعاً. ذلك ما يعترف به في النهاية ليون دلمون. فلم يستطع أن يُهدّأ من قلقه الوجودي إلا من خلال الاعتماد على ذاته، وليس على امرأة أخرى، أي على وجه مغاير رُفِع إلى مرتبة المثال. إذ إنه لم يتمكن من استخلاص معنى تحولات حالته الوجدانية الداخلية إلا من خلال كتابة مساره العاطفي ذهاباً وإياباً.

وما يعانيه الكائن الذي تمّ هجره يقدّم لنا أيضاً بعض الحقائق عن الحب. فإذا تمّ الانفصال عنه، فيحدث ذلك أثراً على الصعيد النفسي بالضرورة. إنه عنف التنكّر لحبّه، ما يشكل جرحاً نرجسياً؛ فالقطيعة الغرامية تمثل في هذه الحالة عملية تهديم منتظمة للأنّا. «لقد تلاشت صورتك على غرار تفصيل صغير في مشهد طبيعي»⁽²⁾، كتبت لو أندرياس-سالوميه إلى حبيبها الشاعر ريلكه في رسالة القطيعة الموجهة إليه. فمن

(1) انظر المرجع نفسه، ص 240: «ولكن الآن وقد تجلّى هذا الشرح العملاق، لم يعد بإمكانني أن آمل باندماله أو نسيانه، لأنه يودي إلى مغارة لها أسبابها، موجودة في داخلي منذ زمن بعيد، ولا يمكنني ادّعاء القدرة على طمرها، إذ إنها تشكّل الاتصال مع شرح تاريخي واسع المدى».

(2) Lou Andreas-Salomé et Rainer Maria Rilke, *Correspondance*,

Gallimard, 1985، رسالة لو أندرياس-سالوميه إلى ريلكه بتاريخ 26

فبراير 1901.

لا يبالى بهذه الكلمات المنطوقة أو المكتوبة من قبل الحبيب؟ وما هو الحقيقي في الكلام المعلن للقطيعة؟ فهل آريان بطة رواية جميلة السيّد (*Belle du Seigneur*) هي «المرأة التي تفتدي كل النساء» أم أنها مجرد «بلهاء»؟ يتعين، بالنسبة إلى الكاتب فيليب فورست، أن لا نهتم كثيراً: «فما نقوله في الحب، هو في نهاية المطاف، أي كلام ولا يعني شيئاً»⁽¹⁾. فالبوح بالحب لا يساوي شيئاً. ولكن ماذا عن حالات البوح بزوال الحب؟ أليست على العكس حقيقة تماماً؟ ألا تقول لنا، من موقع الحقيقة الصارخة، السبب الذي يدفعنا إلى أن نتوقف عن الرغبة في شخص ما؟ وإذا كنت أتألم بهذا القدر من هذه الجُمل القاسية، ألا يعود ذلك إلى أنني أتعرفُ إلى ذاتي في صورة ذلك الشخص الذي لم يعد مرغوباً؟ أوليس هو الأنا التي أخشاها، وأهربُ منها، وأخفيها عن نفسي، هي التي يكشفها لي الآخر من خلال الإفصاح عن حقيقتي الفعلية؟ تشير مارغريت دوراس في رسالة القطيعة التي وجهتها إلى يان أندريا إلى عجز رفيقها القديم عن الحب. قد يكون ذلك هو ما يجعلُ كلام القطيعة على هذه الدرجة من المرارة، أي كونه يدلُّ بحدّة فائقة على أوجهُ القصور وأوجهُ الضعف هذه، والتي نحاول أن نخفيها عن أنفسنا.

كل شيء كان سيصبح ممكناً، كل شيء، لو كنت قادراً أن تحب. أقول: قادراً أن تحب كما لو قلنا قادراً على المشي. وكونك لا تتكلم أبداً، ما فاجأني إلى حد كبير، يأتي من ذلك أيضاً، من ذاك القصور عن القول، أو عن الحاجة إلى القول. قد يكون ذلك مجرد تأخير، كما آمل. فأنت حتى لست سيئاً. أنا أسوأ منك بكثير. إلا أنني أكن الحب في داخلي في الآن عينه، أي ذلك الاستعداد الخاص وغير القابل للاستبدال لأن أُحب. أما أنت فليس لديك هذا الاستعداد. أنت مُجرّد من الحب⁽¹⁾.

ما يتمّ الكشف عنه هو قحطنا الحميم، وقلقنا الأساسي المرتبط بالفراغ العميق الذي نحاول أن نتستر عليه. من الممكن أن يتركنا الآخر ليس لما نحن عليه، وإنما لما ينقصنا. لأننا لا نتطابق مع رغبة الآخر، ولكن أيضاً لأننا نخلو في العمق من تلك الرغبة التي يكررون لنا أنها يجب أن تكوننا. ما يكشفه العاشق السابق، هو خدعة الرغبة، وعجزنا عن إيهام الآخر برغبتنا. فالحب لم يعد موجوداً، وحتى من الممكن أنه لم يوجد أبداً حقاً. فمن يغادر يلوم في النهاية الآخر لأنه توقف عن لعب لعبة المخدوع المنتظرة. وما رسائل القطيعة ومشاحناتها سوى التعبير عن التخلي عن هذا الخواء المقلق بنبرة مأساوية.

(1) رسالة مارغريت دوراس إلى يان أندريا، 23 ديسمبر 1980.

إلا أن البعض معتادٌ على هذه الحالة. فمن خلال تكرار التعرّض للهجر، ينتهي الأمر بالواحد من هؤلاء بتحمّل الصدمات بمزيد من السهولة، وهي قدرة يطلق عليها في الفيزياء «المرونة الاستيعابية»^(*). فلا تعودُ سفالات من يتركنا أو تتركنا تهزُّنا. ففي فاتحة روايته بعنوان الإخلاص الشديد، يقدم نيك هورنبي مشهد رجل متمرّس في تعرضه للهجر:

هذه على التوالي، مرّات قطيعتي الخمس التي لا تنسى، جزيرتي المهجورة الدائمة: (1) أليسون آشورت (2) بيني هاردويك (3) جاكى آلن (4) تشارلي نيكولسون (5) سارة كندور.

لقد سبّبن لي هؤلاء الخمس أذى كبيراً. انظري جيّداً يا لورا: هل ترين اسمك في هذه القائمة؟ [...] قد يكون كلامي قاسياً، ولكني لا أريد أن أجعلك تتألمين، فالواقع أننا أصبحنا مسنّين جداً كي يكسر أحداً قلب الآخر، وذلك لحسن الحظّ، وبالتالي لا تستائي من هذا الفشل [...] ولو أنك كنت تريدين تدميري، كان يتعيّن عليك أن تفعلي ذلك عندما كنت لا أزال شابّاً⁽¹⁾.

(*) المرونة الاستيعابية (Résilience) تعني القدرة على تلقّي الصدمة واستيعابها ومن ثم العودة إلى الحالة الطبيعية، تماماً كانهاء الخيزران وانتصابه من جديد. (المترجم)

Nick Hornby, *Haute fidelité*, 10/18, 1995, incipit.

(1)

قد يعزينا أن نرى في قرار هجرنا خطأ جسيماً في التقدير. فالبعض من أمثال أبطال فنسن دولوكروا البؤساء، في الرواية الممتازة ذات الطابع الكيركيغاردى [نسبة إلى الفيلسوف الوجودي كيركيغارد] بعنوان ما تَمَّت خسارته، يفلتون من اليأس الغرامى من خلال التحلّي بالسخرية: «ذهابك تركني [...] في حال من اللامبالاة، وخصوصاً بسبب قسوته وما أفصح عنه من لا مبالاة سخيفة، ما شكّل فوق ذلك نوعاً من الغلطة غير اللائقة»⁽¹⁾.

إلا أن القطيعة تدمّر أحياناً. فالانهيار يتهدّدنا، كما يشير إليه ج. ب. بونتاليس، في حديثه عن أحد مرضاه قائلًا: «إنه على حافة ذلك الانهيار الذي يمكن أن نقع فيه حين تتركنا من كنا نحبا بشكل مفاجئ»⁽²⁾.

وكأنه يتوجّب في القطيعة تقديم توضيح ما. إذ يحدث أن ينهار الشخص الذي تعرض للهجر. حتى أنه يكفي مجرد الحدس بحبّ آخر ولید. إنها تلك الإبادة الوجودية الناتجة عن زوال الحب التي تصفها حق وصف رواية انخطاف لول ف. شتاين. وذلك في مشهد لقاء هو في الآن عينه مشهد قطيعة، حيث تقدّم مارغريت دوراس لحظة «الافتتان»، تلك اللحظة

Vincent Delecroix, *Ce qui est perdu*, op. cit., p. 28.

(1)

J.-B. Pontalis, *Marée basse, marée haute*, Gallimard, coll. «Folio», 2014.

(2)

التي «تُخطف» لول فيها، وتُسَلَب منها حياتها، فتتجمّد في الذهول، أمام ذلك الحب الذي يولد أمام عينيها، ويدمرها، حبّ زوجها، مايك ريتشاردسون، لأن-ماري ستريتر التي قابلها للتو. تشاهد لول التحول الذي يحدث خلال لحظات. تنظرُ إلى زوجها وهو يقع في غرام امرأة أخرى أمام ناظرها، وتراه عاجزاً عن إخفاء أي شيء من ذلك الانجذاب الذي لا يقاوم والذي يجتاحه. تراه يصبح شخصاً آخر، تحت وطأة هذا الحبّ الصاعق، الذي يعيشه وكأنه القدر المُنزّل:

لقد أصبح كائناً آخر. ذلك بادٍ للعيان أمام الجميع. إنه لم يعد ذلك الشخص الذي تعرفه. نظرت إليه لول، وهو يتغير. [...] أصبح مفهوماً أن لا شيء، ولا كلمة ولا عنف في الوجود يمكن أن ينال من تغير مايكل ريتشاردسون. أصبح عليه الآن أن يعيش حالة الانجذاب هذه حتى الثمالة. وهكذا بدأت تتشكّل قصة مايكل ريتشاردسون الجديدة. ولم يبدُ أن هذه الرؤية وهذا اليقين قد تصاحبا عند لول بأي معاناة. [...] لقد ترصّدت هذا الحدث وهو يتفاقم بشدة وبإحكام. وحتى لو أنها كانت المسؤولة ليس فقط عن حدوثه وإنما عن نجاحه، فلم تكن لول لتصاب بمزيد من الذهول⁽¹⁾.

(1) Marguerite Duras, *Le Ravissement de Lol V. Stein*, Gallimard, coll. «Folio», 1998, p. 18:

«لقد رأت تاتيانا إلى أي حدّ أصبحوا مسنين [...] لقد بلغ ثلاثتهم من العمر عتياً، مئات السنين، من هذا العمر، الجنوني النائم».

أن ننظر إلى المصيبة تتمّ أمام أنظارنا. أن نرى النجوم تتساقط. أن نحضر نهاية قصتنا وبداية قصة أخرى تُكُتَب من دوننا. أن نرى أنفسنا نزول لصالح وجود آخر. تصفُ دوراس جيّداً الدهول المفارق أمام الكارثة الغرامية التي تتهدّدنا في مواجهة ما لا راّد له ولا يمكن التفكير بإمكانية حدوثه. القطيعة هي هنا «الحدث»، الدهول، الذي يجمّد لول في الآن واللحظة ويحوّلها إلى تمثال جامد في الآن عينه الذي تسارع فيه الزمن: «بقيت لول في مكانها الذي كانت فيه حيث وجدها الحدث عندما دخلت آن-ماري ستريتر، من خلف نباتات المشرب الخضر»⁽¹⁾. فالحب الصاعق الذي أُعيد توزيعه فجأةً وبعنف جعل كل واحد منهم شخصاً آخر، وألقى بهم في ديمومة مجنونة دمّرت لول ف. شتاين⁽²⁾.

أن نشهد، في حالة من العجز عن فعل شيء، الحدث الذي يدمّرنا، وأن نتحول إلى شهود على ما يُوقّع الحكم علينا بالموت. وكما تقول مارغريت دوراس، «شاهدت لول هذا الحب الوليد. لقد شاهدت ذلك الحدث بأقصى ما يمكنها، حتى تلاشت من المشهد هي ذاتها»⁽³⁾. بالنسبة إلى الكاتبة دوراس، يشكّل هذا المشهد، ورؤية الحب الوليد إلغاءً لكيان

(1) المرجع نفسه، ص 20.

(2) المرجع نفسه، ص 19-20.

(3) Caroline Champetier, «Marguerite Duras», *Un siècle d'écrivains*, n° 90, France 3, 18 septembre 1996.

لول، إذ دخلت هذه الأخيرة في مسألة الموت الذي حكمت عليها به آن-ماري ستريتر⁽¹⁾. تصفُ هذه الرواية إلغاء كيان شخص معيّن، حيث يتمثل الأمر بالنسبة إلى دوراس بالقتل الذي تمارسه امرأة ما من خلال الاستيلاء على مكان امرأة أخرى. لقد دُمّرت لول من خلال تلاشي الحب الذي كان يكنّه لها زوجها مايكل ريتشاردسون، وكأنها لم تعد موجودة مع زوال هذا الحب. إذ لم يعد هناك امرأة اسمها لول، تقول دوراس، بل كل ما تبقى هو «عذاب من دون موضوع»⁽²⁾. وكأن لول قد غُيِّبَتْ، وكأنها قد «خُطِفت»، وحذفت من هذا العالم الذي لم تعد تعبره إلا بمثابة حضور شبحي لا يكاد يُرى. في هذه الحالة الجذرية، ونظراً إلى هذا الأثر المدمّر لفقدان الحب على الكائن الذي تمّ هجره، تتخلى الذات عن ذاتها، وتغيب عن ذاتها. حتى لا يعود يبدو أنها «تتألم من عذابها»⁽³⁾، لأنها فقدت القدرة على تقدير ذاتها، بكلّ معاني الكلمة⁽⁴⁾.

(1) Marguerite Duras, *La Vie matérielle*, P.O.L, 1987, p. 20.

(2) Ead., *Le Ravissement de Lol V. Stein*, op. cit., p. 23:

«يقال إن ذهول لول قد اصطبغ ساعتها بإشارات العذاب. ولكن ماذا يعني عذاب من دون موضوع؟».

(3) تبعاً لتعبير بول ريكور فإن «العذاب ليس هو الألم»، في العمل من تحرير

كلير ماران وناثالي زكاي-راينر، بعنوان العذاب والألم، في *Autour de*

Paul Ricoeur, PUF, coll. «Questions de soin», 2015, p. 25.

(4) المرجع نفسه: «يبدو أننا نخرج هنا من الدائرة التي يمكن أن يتواجد فيها

التقدير وانعدام التقدير، من خلال العبور إلى حدود العجز عن تقدير المرء لذاته».

في الحالات الأكثر عنفاً وفضاظة كتلك التي أشرنا إليها للتو، فإن فقدان الحب يدمّر الشخص المهجور. يمكن أن نموت نفسياً من الأسى الناجم عن الحب وفقدانه، وندخل في حالة من الخواء الوجودي، ونتلاشى. لماذا يكون الانفصال الغرامي غير قابل للاحتمال أحياناً؟ لأنه في هذا الانقلاب الحميم المفاجئ، لا أعود أعرف من أنا، ولا أعرف حتى إذا كنت موجوداً.

ولحسن الحظ، فليست كل حالات القطيعة الغرامية تتسم بالعنف نفسه. إلا أن فقدان الحب على أثر الهجر يزعزع الكيان بالعمق. ماذا نكون عندما يتوقف الآخر عن حبنا؟ وهل بإمكانني خسارة الصفات التي يضيفها عليّ حب الآخر دون أن أخسر ذاتي؟ وتبعاً لتعبير باسكال «فإننا لا نحب شخصاً إلا بفضل صفات مستعارة»⁽¹⁾. فمن خلال حب الآخرين لنا، نستعيرُ خصالنا الذاتية، في نوع من لعبة السدج. ولذلك يصبح الانفصال قاسياً إلى هذا الحد. إذ أفقد فجأة تلك الميزة التي تجعلني شخصاً جذاباً، ذكياً، كريماً أو مسلياً. وليس ذلك لأنني كنت أتمتع حقاً بهذه الصفات، وإنما لأنني كنت كذلك في عيني الآخر المحب. ما يختلُّ هنا هو يقيني من هويتي. ويتلاشى عندها وهم الأنا. من أكون الآن بعد أن لم أعد أعني شيئاً بالنسبة إليك؟

يردُّ على ذهني، هنا، مصطلح «الطلاق» المبالغ فيه بلا شك. إلا أنه يعبرُ بدقة معقولة عن مشاعر النبذ التي قد يحسُّ بها من تعرّض للتخلي عنه، وهو ذو دلالة على وجه الخصوص إذ إننا نتخلى عن ونبذ مَنْ يثير فينا الخجل والاشمئزاز. فما الذي يبيح، في بعض البلدان، للرجل تطليق زوجته؟ لأنها عاقر؟ فهذه المرأة العقيمة، لا تعدو كونها وعداً خائباً. إذ قد تُعدي زوجها بعيبها، وقد تجعل منه أضحوكة. إذ ما قيمة الرجل من دون ذرية؟ سيثار عندها التساؤل حول ذكوريته، مع ابتسامات خبيثة، ونظرات تحطُّ من قيمته. ولأن زوجته تحطُّ من قدر ذكوريته، فهو ينبذها ويتنصّل منها، كي يتجنّب أن يكون هو موضع عيب وقصور. يتعين عندها ذكر ألم القطيعة الآخر: الخجل من كوننا أصبحنا موضوعاً للخجل. ولا يعني ذلك مجرد فقدان القيمة الذاتية، وإنما نتحول إلى أن نكون غير جديرين بالحب. أي أن نصبح مبعدين في غيتو أولئك الذين لا يستحقون أن يُحَبُّوا، ولا هم جديرون بالحب. العنف اللاحق الذي يقع على مَنْ سُحب منه الحب هو من دون حدود، إذ يعيد قراءة التاريخ الذاتي: هل كنا نستحق الحب بالفعل؟ ألم يكن كل ذلك، ومنذ البدء، مجرد سوء تفاهم؟ ذلك أن ما يُطرح في العلاقة الغرامية هو كذلك مسألة قيمتي الذاتية، كما يذكّرنا رولان بارت في عمله بعنوان شذرات من خطاب محب، إذ إنني أنتظر ممّن يحبني الجواب على هذا القلق الجوهري المتعلّق بقيمتي، «ماذا أساوي حقيقة؟»:

أبحث عن إشارات ولكن عن ماذا؟ ما هو موضوع بحثي؟ فهل أنا محبوب (أم أنني لم أعد محبوباً، أم ما زلت محبوباً؟) هل مستقبلي هو ما أحاول قراءته، مستخلصاً مما هو مكتوب الإعلان عما سيحلُّ بي، تبعاً لعملية استقصاء التاريخ الذاتي والتنبؤ بالغيب؟ ألا يعدو الأمر في نهاية المطاف، كوني أبقى معلقاً على هذا السؤال الذي أطلب الجواب عنه بإلحاح من وجه الآخر: ماذا أساوي⁽¹⁾؟

يتحول فقدان الحبّ عندها إلى تجربة قاسية من تبخيس القيمة الذاتية. يقول بارت بهذا الصدد: «أنا لم أُدمّر، وإنما أصبحت ملقى هناك، بمثابة حثالة». وبالتالي تشعرُ المرأة المهجورة أنها «بائسة تماماً»⁽²⁾. فالقطيعة تحطُّ من قدري وتهينني، وذلك مهما اتّسمَ مَنْ هجرني بالّلطف. إنه ينتزع مني الحُلي التي تقدّمها محبته لي، ويتركني في حالة عري الإنسان الذي جُرّد من كل شيء.

من الآن فصاعداً، أنت، الكائن المحبوب، سوف تتنحّى

(1) Roland Barthes, *Fragments d'un discours amoureux*, dans *Œuvres complètes*, t. V, 1977-1980, Seuil, 2002, p. 263.

(2) Simone de Beauvoir, *La femme rompue*, Gallimard, coll. «Folio», 2012, p. 164:

«الأربعاء في الثالث من نوفمبر. لطف موريس يسبب لي المعاناة [...] لم يعد يقبلني على شفّتي. أشعر أنني بائسة تماماً».

جانباً. أنت تؤكد أننا نستطيع الانفصال، وكأنه كان هناك، في «أنا» هذه فريقان متميزان، بينما كنا نعيش اتحاداً، وامتزاجاً فيما بيننا. فأن نُتْرِكَ، يعني أن نشعر بأن جزءاً حيويّاً منا قد تمّ بتره، «كنا نصفين مكملين لبعضنا في كل شيء، ولم أعد الآن سوى نصف كائن» تبعاً لقول مونتين. ينشطرُ جسد الحب، ذلك الجسد الوهمي الذي كوّنهُ الحب، ويتمزق.

«عندما تبدأ تباشير حياة جديدة، هل يتعيّن أن تمحى حياة أخرى بعد أن كانتا متمازجتين طويلاً بحيث تصبحان غير قابلتين للانفصال؟»⁽¹⁾، تساءل ج. -ب. بونتاليس. كيف يمكن فصل جسدين وروحين ذاب أحدهما في الآخر لدرجة يصبح معه من غير الممكن معرفة ما يعود إلى أحدهما وما يعود إلى الآخر؟ يقول ميرلو بونتي، ينتهي بي الأمر في الحوار بأن لا أتمكن من التعرف على ماذا كانت فكرتي. في تواطؤ الحب والمعاشرة اليومية، ينتهي بي المطاف بأن لا أعود أعرف ما يمتّ إليّ حقيقةً، وما قمت بتبنيّه من خارج ذاتي. إننا نُسمّي العادة بسُمّ الحب، إلا أن «عادة أن نكون» كياناً نقسمه فيما بيننا، هو ما يُولّد انسيابية الحب الراقصة هذه. فالآخر كان لي أنا وكأنه ذاتاً في ذاتي. فالجسدان المتمازجان أصبحا غير قابلين للتمييز بينهما⁽²⁾.

J.-B. Pontalis, *Marée basse, marée haute*, op. cit.

(1)

Philippe Forest, *Le Nouvel Amour*, op. cit., p. 145:

(2)

«الذراعان مفتوحتان، الساقان متباعدتان، وشوشة البطينة، الجسدان =

ما يتمّ خسارته في القطيعة هو وشوشات الجسدين، والكلام الهامس، وحركات اليدين السلسة، وتناغم الجسدين اللذين يتقاربان ويتباعدان في آن معاً، ويستسلمان لبعضهما في اليقظة كما في النوم، كما يحتميان ببعضهما ويحميان بعضهما. ما ينقصنا، في الانفصال، هو جسد الآخر باعتباره امتداداً لجسدنا، أو بتعبير أدقّ كجزء من جسدنا. وعندما يتوقف الآخر عن مبادلتني الحب، أصبح وكأنني فقدت حدودي الذاتية، فيسيلُ كياني خارجاً عني، ويقعُ في الخواء. ذلك هو نزيف الكيان المهجور من قبل الحبيب.

«إنه لأمر رهيب حين يتمزق الثنائي». لقد سمعت ألف مرة تعبير «يتمزق» إلا أنه بدأ فجأة يتخذ معنى. يبدو اللجوء إلى الكليشيهات المعتادة في مواجهة محنة الانفصال، نوعاً من الاستسهال. ومع ذلك، وكما هو الحال غالباً في القطيعة الغرامية، فإن الحقيقة الحقّة تتجلى في الكليشيه: الثنائي يتمزق، ولكن ذلك لا يعني أن المحبين السابقين يتشاجران. وإنما هو يعني أنهما يحاولان فعلاً أن يسحب كل منهما ذاته من وجود مشترك، من جسد عاطفي، وكذلك من جسد فسيولوجي امتزجا فيه عندما كانا يشكّلان ثنائياً. تشكّل هذه القطيعة تمزقاً لأن كل طرف يحاول أن يسترّد جسده الذاتي

= المتواجهان والممددان أحدهما على الآخر على السرير، الأنفاس المختلطة أثناء النوم، تمازج أعضاء الجسد صباحاً، الألفة المذهلة للإشارات... وأن يكون واحدنا حاضراً بقرب الآخر.

حيث كان الحب وحياة الثنائي قد صنعا منهما خلال مسار العلاقة جسداً مشتركاً كانا متمازجين فيه، وعادةً جسدين متبادلين يشكّلان جسداً مشتركاً، حاضراً ولو أنه غير مرئي، ويشكّل امتداداً لجسد كل منهما. جسدي المُحب هو جسد يبيع لذاته تداخلات مع جسدك كي يقترب منك ويقرّبك مني لدرجة التشابك والتمازج. جسدك المحبوب هو جسد يفتح لي ويقدم ذاته لتواصلي معه، ويتحمّل اقترابي منه، بل يبحث عن هذا الاقتراب. جسدك القريب إلى هذا الحدّ مني يوسّع من مدى جسدي، بمثابة مجال جديد لكياني. تمازج جسدانا على مدى السنين وخلقاً حيّزهما الخاص في المكان. وبالتالي فذاك الذي يفصل عن هذا الجسد المشترك، والخيال العاطفي الذي خلقه الحب، يحكم على الآخر بالفناء مع ما تبقى من جسده المكلوم.

تمثّل القطيعة تجربة الانسلاخ. الانسلاخ عمّا اعتبرناه لنا، وما دمجناه في ذاتنا. لا يتلخّص الأمر بمجرد ابتعاد الآخر، حاملاً معه شطراً من ذاتي، ممّا ينتزع بعضاً من جلدي، وإنما هو يحرمني من غلاف الحب الذي يطمئنني ويحميني، من حضوره ورعايته، كما يحرمني من تلك النظرات المُغوية، الخيرة، أو الفخورة. أصبح فجأة عارياً، من دون درع، ومن دون ريش، لا يتبقى لي سوى غضبي بمثابة سلاح، وحزني الذي يتخذ طابع الأشلاء. أصبح عارياً على غرار الحيوان الأكثر هشاشة. إذ لم أتحوّل إلى مجرد كائن هش فقط

وإنما أُصْبِحَ محروماً من ذاتي، محروماً من كياني ومن جسدي، وكأنني أصبحت مبتوراً.

تتجلى نهاية قصة حب في تبدّل وتيرة ضمنية، وتيرة هذين الجسدَيْن التي تصبح مختلفة. فلا يعود العاشقان يمشيان بالخطوة ذاتها. وتظهر مؤشرات أولية، حيث يفقد إيقاع الجسدَيْن تناغمه، وبديهيته. ومن خلال كسر هذه العادة المشتركة، يبيّن الجسد أنه قد اتخذ لنفسه مسافة. تفضّح هذه التباعدات الخفيفة، وهذه الانقطاعات الصغيرة في استمرارية الحركات المألوفة، تفضّح كائناً يتباعد، وعاطفة تذبل. تحدث القطيعة في تناغم الجسدَيْن العاشقَيْن، ويتلاشى الحضور تدريجياً، ويحاول العاشق أن يتنحى. يخفّ حضوره، وكأنه ينمحي تدريجياً. وهذا ما يطلق عليه رولان بارت تعبير «الخفوت»⁽¹⁾. أفهم من نبرة صوتك أنك لم تعد هنا، صوتك يتلاشى، إذ لم يعد سوى مجرد طيف⁽²⁾. عندما يخرج

(1) «Fading» أي خفوت: «إنه امتحان مؤلم يبدو الشخص المحبوب فيه وكأنه ينسحب من كل تواصل، وحتى دون أن تكون هذه اللامبالاة الملغزة موجهة ضدّ الشخص المُحب، أو معلّن عنها لصالح آخر أياً كان، سواء أكان خصماً أم سواه». (Roland Barthes, *Fragments* d'un discours amoureux, op. cit., p. 145).

(2) المرجع نفسه، ص 147:

«يكمن خفوت حضور الآخر في صوته. فالصوت يسند الشاعر، ويفصح عن الخفي وكأنه ينجز تلاشي الكائن المحبوب، إذ يمكن للصوت أن يموت. فما يفعله الصوت، وما يجعلني أتمزق لشدة ما =

المحبيب من حياتي، فأنا لا أتأسف فقط على خسارة جسده،
وبُعده الجنسي، وحضوره من لحم ودم. أُصبح كذلك محروماً
بشدة من صوته. فالصمت الذي يعقب القطيعة يشكّل عنفاً
كبيراً. يختفي عندها كل ما يحمله الصوت من اهتمام،
وعاطفة، ورغبة، ووشوشات، وحرص، وحتى من سخرية.
وأنا أختفي بدوري مع هذا الصوت الذي لم يعد يخاطبني⁽¹⁾.
لا يعود اسمي الشخصي يُردّد. ماذا يمكن أن أفعل عندها
باسمك الشخصي الذي كنت ألفظه بالكثير من الفرح والأمل؟
لم يعد هناك ضحكات منطلقة، ولا تنهّئات، ولا أسئلة، تفقد
الحياة مذاقها، وتصبح صامتة.

البعض لا يقومون بقطيعة معلّنة، بل يتحولون إلى أشباح.
«الشبحية» (Ghosting) هي الاسم الجديد لجبن قديم. نغادر
دون أن نقول شيئاً إذ نكتفي بأن نختفي. وكأننا نريد أن ننفي
كيف أن الحب سبق له أن شبك جسدنا ومزجهما معاً. ولكن
لا يكفي أن نغيب عن المشهد كي نتوقف عن الوجود في رأس
الآخر وجسده. إذ يترك الحب في كياني آثار جسد المحبوب،
حيث إنه شكّل جسدي بدوره، ولذلك سوف يبقى منقوشاً في

= يتعين على علاقتي أن تموت، وكأنها لم تكن، ولا يمكنها أبداً أن تكون
إلا بمثابة مجرد ذكرى. يتجلى التبدل من خلال الصوت، ذي الكيان
الشبح.

(1) كما يصفه بشكل رائع عمل كوكتو بعنوان الصوت الإنساني.

جسدي طويلاً. تبقى ذكريات ملمس جسد الحبيب الناعم، ومذاق شفّته، وشعره الغجري، وصوته الرخيم. إذ لا تتوقف الأماكن، والصور، والروائح، وألوان الموسيقى، وكلمات الأغنيات عن الإحياء المؤلم لهذه الآثار المحسوسة. إنه عذاب الذاكرة العاشقة التي يكفي أدنى المثيرات لإحيائها، عندما نحاول أن ننسى. تلك هي قوة الأشياء والأمكنة التي تستعيد ذكريات الحب السابق؛ وسادية الأحلام التي تعيد إحياء لحظات العناق، وتطلق هوام المصالحات من جديد.

ماذا يتبقى لي حين تتركني؟ وكيف يمكنني الخلاص؟ ولنقلها بوضوح، فلا شيء يضمن أن يكون هذا الخلاص ممكناً. إذ يمكن أيضاً أن نموت حباً. كما يمكن أن نعلق في القطيعة، ونعانيها بشكلٍ مأساوي، ونتمرّغ في آلامها، ونعيشها بمثابة لعنة. «ميم بمثابة لقاء سيئ»، يقول غريغوار بوييه في ملف ميم الذي وضعه. فعلى مدى عشر سنوات يحاول، وبجميع الوسائل المتاحة، أن ينسى إلحاح وسواس الشخص المحبوب والمفقود، ويتحول الأمر إلى نوع من الحداد الغرامي المستحيل. على مدى عشر سنوات يستعيد في كل مجالات العلاقة وأماكنها الاضطراب القهري لذكرى المحبوب وشدة الوله به، لدرجة الإذلال، والانحطاط الكياني والندالة. إذ إن ذلك ما تفعله القطيعة بنا أحياناً. كائن قد تبدّل كلياً، وأصبح محطّ ازدراء وكأنه يعطي الحق للحبيب الذي تركه.

تحوّلنا القطيعة، وتعتدي علينا جسدياً. فهي تجربة محسوسة، ومتجسّدة. ينخرنا وسواس الفقدان من الداخل. ونحسّ بالحرقة بمقدار ما تنهال جُمل المحبوب القديم القاسية التي تغتالنا، وكذلك بمقدار عطفه علينا. يولّد هذا العنف الرمزي آثاراً فيزيقية. ممّا يتجلى في القلب المذعور، والخفقان، والارتجاف، والغثيان، والدوار؛ فما كان يشكّل تماسكي ورسوخي انكسر في داخلي. إذ يُنقش الانفصال على جسدي. ظهّر منحنٍ، ملامح مقطبة، صوت مرتجف، وقوام مصاب بالنحول. أو كذلك وجه منتفخ، وشعر أشعث، وثياب مهملة. في الواقع إن كيّاننا كله مدعوك ومصدوم، موصوم بشكل نهائي بالقطيعة التي تسحقنا وتفسدنا، كما تقوله جيّداً هيلين جسترن في عملها بعنوان دوار: «لقد أحسست أنني بمثابة ورقة مدعوكة. وسواء ذهب أم عاد، فمن كنتُ أحبه لن يستطيع إزالة الأثر العميق الذي غرسه في كيّاني»⁽¹⁾. فأن نتعرض للقطيعة ليس مجرد تعبير مجازي. فالقطيعة تحولنا إلى كائن مكسور⁽²⁾.

ليس الألم نفسياً فقط، بل حقيقياً، ومحسوساً وجسدياً. إنه ألم الفقدان، الذي يولد إحساساً بالضيق، والغثيان،

(1) Hélène Gestern, *Un vertige, suivi de La Séparation*, Arléa, 2017, p. 18.

(2) المرجع نفسه: «قد بلغت الحد الأقصى لتجربتي، و[...] من الآن فصاعداً يأتي وقت بلسمة الجراح، والشطب، والانسحاب».

والحرقة. يتجلّى في ضغط على الصدر، وتقطّع الأنفاس،
وتصبّب العرق؛ فالجسد يبرز بذلك فظاظة اختفاء المحبوب.
وعندما يغادر الآخر، فإنه يأخذ معه أجزاءً مني ويترك لي مهمة
إصلاح هذا الجسد الجريح. تؤكد بولين ديلابروا-آلار، في
روايتها ذات الطابع الغرامي الولهاني، بعنوان ذلك يروي
سارة، على البُعد الجسدي للقطيعة، وعلى آثارها الجسدية
العنيفة. يُحدث ذهاب المحبوبة السابقة بدهاءة مؤلمة، حيث
يذوي الجسد فعلياً في هذا الفراق. تختفي سارة خلصة، ولكن
القصاصمة المجهولة تعيش هذا الاختفاء بمثابة اجتياح داخلي
لكيانها:

لم تعد تتصل بي هاتفياً. ولم تعد تجري ورائي في
الشارع، وفي ممرات مترو الأنفاق. ولا كتبت لي في
الأيام التي تلت اختفاءها، ولم تطلب أن نذهب إلى
المسرح، أو أن نرى البحر، أو نزور حديقة عامة، أو حتى
نشرب الشاي أو نتناول وجبة يابانية. لم تعد تسأل عن
أخباري، أو تطلب أخباراً عن الطفل. إنها لا تعلم أن
جسدي كله يحرقني، وأن رأسي يشتعل، وأنني لم أحس
أبداً فيما سبق بألم جسدي صارخ وبهذه القوة⁽¹⁾.

(1) Pauline Delabroy-Allard, *Ça raconte Sarah*, Éditions de Minuit, 2018, p. 96.

لسنا بصدد تعبير مجازي، وإنما بصدد ألم جسدي حقيقي. تبدو الحاجة إلى الآخر ذات طبيعة حيوية، وصورة الحريق تروي الكيان المشتعل للمُحِب المتروك. وما زال الجسد مسكوناً بذكرى حضور الآخر، الذي لم يعد سوى عذاب مقيم. فهذا الحضور الذي كان يمثل مبدأ حيويّاً تحوّل الآن إلى عنف داخلي، وعنصر تدمير⁽¹⁾. تقدّم الروائية أعراض اللهفة الفسيولوجية⁽²⁾، وكأننا بصدد حالة إدمان على المخدر. لا يعود الجسد المهجور قابلاً للتعرف إليه. إنه يحمل وصمات هجر غرامي لا يُطاق. إذ لم يعد يحظى بالنظرات الحانية، والمداعبات، ولا يحمل بصمات الآخر، ولم يعد يعيش إلا ببطء وعلى مستوى مجرد البقاء، في حالة من الاستسلام المضاعف، حيث يهجره مالكه، ويسيء معاملته. هذا الجسد المؤلم أنزلُ به بدوري المعاناة، والعذاب. أتفنّن بتجويعه، أو بإتخامه، وأمنع عليه الراحة أو النوم، أو أُخَبِّلُهُ بالخمرة، أو المخدرات، أو الأقراص المنومة

(1) المرجع نفسه، ص 99:

«جسدي يحرقني، حتى من دون ماء البحر المالح. كل آثار الجروح، وهذه النار التي تشتعل في بطني عندما أتخيلك، وكل هذه الليالي البيضاء، وصورك التي أراها تمر في السقف وكأنها شهب...».

(2) المرجع نفسه: «اللهفة إلى سارة تجعلني أرتجف، أقضي نهاراتي في البكاء، وتسيل الدموع بصمت على عنقي. انتفخت عيناوي وجف ملح الدموع على خدي».

كي لا يعود يحس بشيء. وهكذا أدخل في حياة خاوية، حياة في حالة كمون⁽¹⁾.

القطيعة تُبشّعني، وكأن جسدي يعطي الحق لمن تركني. نصاب بالهزال حتى العظم، أو ننتفخ مثل كرة، وترسم خطوط الحزن السواد تحت عيوننا. نفتقد القدرة على الابتسام. فالقطيعة تُشوّهنا أيضاً. يغيّر كياني وحياتي من مظهرهما، ومن شكلهما، فيصبحان بلا ملامح، ولا يعود بالإمكان تعرّفهما. لقد أُتِلِفْتُ كلياً. تتنافس الأفلام الكوميدية الأميركية برسم صورة تلك البطلات التعيسات ذوات العيون المحمرة واللواتي يملأن بطونهنّ بالمثلجات أمام شاشات أحد الأفلام. ولكن فيما يتجاوز هذه الكليشيهات المبتذلة، فإن الأسى الذي يستحوذ عليّ في حزن فراق المحبوب يُنقش على ملامحي، وعلى مظهري الجسدي.

يشيخ شيء ما فيّ قبل الأوان⁽²⁾. ويحتفظ وجهي بأثر هذا التدمير. تترك قصة الحب وخسارته آثارها على هذا الوجه المليء بالتجعدات. تترك لنا القطيعة، أحياناً، سواء أكانت

(1) ذلك هو المصطلح الذي تستخدمه الروائية لوصف حالتها الاكتئابية، مستعيرة مصطلح «الكمون» من قاموس طبي (المرجع نفسه، ص 99).

(2) «أتجنب النظر إلى نفسي. ولم أعد أجرؤ على إضاءة النور في الحمام. بالأمس تواجدت وجهاً لوجه مع سيدة عجوز... كلا، كلا! سيدة عجوز نحيلة ذات شعر أبيض والعديد من تجاعيد الوجه» (Jean Cocteau, *La Voix humaine*, Stock, 2002, p. 33).

غرامية أو في تاريخنا الشخصي، وجهاً مدمراً. المرأة المهجورة، والمريض، والأرمل، يظهرون علائم الألم⁽¹⁾. وكما يقول بول فاليري، فإن الوجه يكشفنا تماماً وقد لا يتعين علينا أن نظهره للغير بهذه الكثافة⁽²⁾. فالمحن تُنقش على وجوهنا. بهذه الحقيقة تبدأ رواية مارغريت دوراس بعنوان العاشق.

ما بين سن الثامنة عشرة والخامسة والعشرين ذهب وجهي في اتجاه غير متوقع. لقد شخت في الثامنة عشرة. لا أدري إذا كان ذلك يحدث للجميع، إذ لم يخطر ببالي السؤال. يبدو لي أنني سمعت باندفاع الزمن هذه التي تصيبنا أحياناً عندما نعبّر سنوات العمر الأكثر شباباً، والأكثر احتفاءً بها في الحياة. كانت هذه الشيخوخة مباغته. لقد رأيتها تتسلل شيئاً فشيئاً إلى ملامحي، مبدلة العلاقات النسبية فيما بينها، فأصبحت النظرة أكثر حزناً، والشفاه أكثر توتراً، وتركت على الجبين انكسارات عميقة. [...] لقد احتفظت بهذا الوجه الجديد والمتحول. شاخ وجهي بعد ذلك بالطبع، وإنما أقل مما كان متوقعاً. أصبح وجهي مليئاً بالثنايا الجافة والعميقة، وفقد الجلد رونقه.

(1) كما درسناه في *La Maladie, catastrophe intime* (PUF, coll. «Questions de soin», 2015).

(2) Paul Valéry, *Le Visage*, dans *Œuvres*, Gallimard, coll. «Bibliothèque de la Pléiade», 1957, t. I, p. 347.

صحيح أنه لم يتهاوٍ واحتفظ بملامحه إلا أن تكوينه قد تدمّر. وجهي مدمّر⁽¹⁾.

هناك بالطبع شكلان من التقدّم في العمر. يمكن تصور التقدّم نحو الشيخوخة بمثابة عملية تدريجية، أو على العكس، بمثابة «حدث»، و«قطيعة مفاجئة، أو حادث خلال المسار»⁽²⁾. فالمحنة تترك بصمتها على جسدنا وعلى وجهنا. تُسرّع الطريقة التي يُلقى بها الحادث بنا في مسار زمني مختلف من شيخوختنا، بمعنى أنها تحدّ من قدرتنا على المقاومة، وتنازل من قدراتنا على الردّ. هناك نوع من التحول الكيميائي المفاجئ ومن التسارع الزمني: إذ يُبرز الحادث فجأة الشكل الجديد لوجودنا⁽³⁾.

لا تخرب القطيعة الغرامية جسدي وروحي فقط، وإنما هي تجتاح عالمي، تاركة وراءها عالماً مقفراً. ولا شيء يفلت من آثار هذا الانقطاع الوجودي، بل كل شيء يحمل آثاره الواضحة. وحين نتعرّض للترك، يتعيّن أن نتدبّر أمرنا بما تبقى، ومع هذه المهملات التي تتحول إليها حياتنا عندما يغادر

(1) Marguerite Duras, *L'Amant*, Gallimard, 1984.

(2) كما تقترحه كاترين مالابو في *Ontologie de l'accident*, op. cit., p. 43.

(3) المرجع نفسه: «يحدث شيء ما، يلقي بالشخص في الشيخوخة، التي تطبع في هذا التحول إلى الشيخوخة سقوطاً ليس أصيلاً فيها. حادث سخيف، خبر سيئ، حداد، ألم، ومعها تتجمد الصيرورة، وتصنع فجأة كائناً، أو شكلاً، أو فرداً غير مسبوق».

الآخر، تاركاً وراءه جبلاً من الذكريات المؤلمة. ماذا يمكن عمله مع تركة الحب الساقط هذه؟ وماذا يمكن عمله مع هذه الحياة الشبح التي تكمن لنا في ممرّات الشقة، وشوارع الحي، وأماكن الإجازات، والتي تتراءى لنا حتى في صفحات الكتب، ومقاطع الأغاني؟ ماذا يمكن عمله مع تلك الحياة الغرامية المفقودة كما تتراءى نضرة في وجوه العشاق الذين لم ينفصلوا؟ تستمرُّ الأشياء المتبقّية من حياة الحب المشتركة السابقة، مع تغيير دلالتها. تحلّل سيمون دي بوفوار، في عملها بعنوان المرأة المحطّمة، بموضوعة باردة كيفية تفسُّخ وجود الزوجة المهجورة. يُفَرِّغ كل العالم المشترك السابق من محتواه، ويحلُّ الفراغ، كما لو أن الحياة هجرت شهود ذلك الحب المفقود⁽¹⁾. لم تعد الأشياء تشكّل عالماً مطمئناً، إذ تحولت إلى مجرد محاكاة عبثية لذاتها. فما قيمة هذه الأشياء الآن إذا لم تعد متقاسمة فيما بيننا، وإذا لم تمس سوى الشاهد عن حب فاقد للحياة؟ كل ما كان مألوفاً يبدو الآن غريباً أو موضع ريبة، ويتخذ معنى التواطؤ على الخيانة⁽²⁾. وهكذا أخذت

(1) انظر Simone de Beauvoir, *La Femme rompue*, op. cit., p. 210

«الأربعاء في السادس عشر. [...] يبدو أنه لم يعد لي ما أعمله. لقد كان لدي سابقاً على الدوام ما يتعيّن عمله. أما الآن [...] فكل شيء يبدو لي من دون جدوى. أعطى حب موريس لحياتي أهمية في كل لحظة من لحظاتها. أما الآن فأصبحت خاوية. كل شيء خاوٍ: الأشياء واللحظات. وأنا ذاتي».

(2) انظر المرجع نفسه، ص 152: «وكان الأشياء أصبحت مجرد محاكاة =

المرأة المهجورة تكره حتى سيارتهما⁽¹⁾.

تجربة القطيعة هي انخلاع محض. أَصْبَحْتُ مستلبة الذات، ولم يعد بيتي هو بيتي. ترغمني القطيعة الغرامية على نوع من التخلي المؤلم⁽²⁾. تلك هي الطريقة التي تبدو فيها الأشياء التي أسبغنا عليها وجودنا، وسلكنا الواقع معها، حين يحدث الانفصال الغرامي. وكأنّ هذه الأشياء أصبحت مغموسة بالمشاعر، التي شعرنا بها حين امتلاكها، وإصلاحها، وكأننا بصدد إسفنجة قد تشرّبت بالعواطف. إنها الشاهد على الوقت الذي تقاسمناه معاً، والطوطم الشاهد التافه على الحب الذبيح. أصبحت الأشياء بعد القطيعة، بالنسبة إلى البطلة البائسة لرواية سيمون دي بوفوار، عارية، مجردة من ألقها القديم⁽³⁾.

= لذاتها. فطاولة غرفة الجلوس ثقيلة الوزن: أصبحت خاوية. وكأنه قد تمّ قذفنا أنا والبيت في بُعد رابع.

(1) انظر المرجع نفسه، ص 174: «كنت أحبها سيارتنا هذه، لقد كانت حيواناً أليفاً مطيعاً، حضوراً دافئاً ومطمئناً؛ وفجأة أصبحت تستخدم لخيانتي؛ ولذلك فقد كرهتها».

(2) Lydia Flem, *Comment j'ai vidé la maison de mes parents*, Seuil, 2004, p. 50:

«الأشياء ليست مجرد أشياء، فهي تحمل آثاراً إنسانية، إنها تغمرنا. [...] فكل منها له تاريخ ودلالة ممزوجة بالأشخاص الذين استعملوها وأحبوها. إنها تُكوّن مع هؤلاء الأشخاص نوعاً من الوحدة التي لا يمكن أن تنفصم من دون عناء ومعاناة».

(3) Simone de Beauvoir, *ibid.*, p. 232:

«أنظر إلى التمثال المصري: لقد اشتريناه معاً. كان بلون زرقاء السماء، =

تبدو الأشياء فاقدة لرونقها. ولا يبقى منها سوى الذكرى الميتة. لقد فقدت حياتها في نظري. وأصبحت فعلاً لا تطاق. فأنا لم أعد أطيق لبس هذه الثياب، وهذا الخاتم، كما لا أطيق هذا العطر. وما عدت أريد رؤية آثار الحب المفقود التالفة أو المدعاة للسخرية. يتمثل ما تتم خسارته مع القطيعة الغرامية في العالم المشترك، الذي تحوّل إلى نوع من الخراب التالف. وتتجلى لي عندها تلك الروابط الخفية التي كنت عالقة فيها، على غرار شبكة عنكبوت أصبحت فجأة سامة. هذه الأشياء التي ما كنت أراها تقول لي الآن: إن العالم الذي كنا ننتمي إليه لم يعد موجوداً. لم تعد أشياء محببة، ومتناغمة معي، بل أصبحت تثير في ذكريات أليمة. يُفَرِّغ العالم من محتواه ويتحول إلى خواء. يفقد واقعيته، تبعاً للتعريف الجميل الذي قدّمه بارت: «سلخ الصبغة الواقعية. الشعور بالغياب، تراجع الواقع المحسوس من قبل الذات العاشقة في مواجهة العالم»⁽¹⁾. وينتهي بنا الأمر بالضياح. ففي هذه الحياة «الخاوية» التي تلقي القطيعة بنا فيها، نتحوّل

= ومكلاً بالرقّة. وها هو الآن، عاري، وحزين. أخذته بين يدي وبكيت. كما لم أعد ألبس القلادة التي أهداني موريس إياها بمناسبة عيد ميلادي الأربعين. فقدت كل الأشياء حولي وهجها ودلالاتها. ولم يبقَ منها سوى هيكل بائس».

Roland Barthes, *Fragments d'un discours amoureux*, op. cit., (1) p. 213.

إلى مجرد كيان هزيل لا حضور له⁽¹⁾.

كيف السبيل عندها إلى أن نقطع مع القطيعة، مع هذا التمزّق الكياني الذي لا نهاية له؟ «سوف أعدّ الآن حتى الرقم اثني عشر وستصمت وأنا أغادر»⁽²⁾، يقول بابلو نيرودا في قصيدته بعنوان «الصمت». كم كنا نودّ أن يرتّب كل انفصال بسهولة كبيرة. وكم كنا نودّ لو كانت الأشياء بالغة البساطة، ولو كانت القطيعة صريحة، وحاسمة. ولو كانت الحياة العاطفية تتلاشى على نمط نعم - لا [1 - 0] كما هو الحال في الرياضيات. فعندما ينظر إلى الأمر من الخارج، يتعيّن أن تقع الحالة في فئة من اثنتين، كما يعبر كوكتو عن ذلك بحق: «بالنسبة إلى الآخرين، فنحن إمّا نحب وإمّا نكره أحداً الآخر، فحالات القطيعة هي مجرد حالات قطيعة. ينظر الآخرون إلى الأمر بشكل عابر. ولن يمكنك أبداً أن تجعلهم يفهمون المعاناة...»⁽³⁾. إلا أن الانفصال مطاط، يضع ما بين التأجيل والصمت، والتردد. ويمرّ بعدة حالات من الالتفاف، والشك وانعدام اليقين. كم كنا نود أن نمحو كل

(1) انظر Annie Ernaux, *Se perdre*, Gallimard, coll. «Folio», 2001, pp. 286, 316.

(2) Pablo Neruda, «Se taire», dans *Vaguedivague [Estravagario]*, (2) 1958], Gallimard, 1971.

(3) Jean Cocteau, *La Voix humaine*, op. cit., p. 53.

شيء، إلا أنه يتبقى دوماً نتفٌ صغيرة من هذا الماضي تقاوم محاولة الاستئصال. إذ يختبئ الألم في التفاصيل الصغيرة للذاكرة. ومع أنني كنت أريد تدمير كل شيء، إلا أنه يتبقى دوماً آثار هذا التدمير. يبقى أثر الصورة المنتزعة من الحائط، والفراغات في رفوف المكتبة، وفرشاة الأسنان المتروكة وحيدة. إذ تشبه ندوب القطيعة جزئيات مفتّنة تلحُ مسببة الألم على هامش أفكارنا.

أرأيت، أصعب ما في الأمر، تلك هي جزئيات الذكرى، فتات الأحاسيس التي تطفو على سطح وجودي، والتي تلحُ بإزعاج على سطح طبقة بشرتي الخارجية. إذ من السهل التخلص من الأحاسيس الكبرى، والصور الكبرى، التي أصبحت مجردة، وكذلك الذكريات البارزة التي يمكن تسميتها، فهذه سهلة - ولكن ليس تلك الآثار الصغيرة.

[...] فأجزاء الذكريات هذه هي الأكثر إيلاماً، بسبب طبيعتها المفتّنة التي تفلت من السيطرة عليها، من عمارة الذكرى التي يمكن هدمها. أجزاء الذكرى أكثر دلالة واستعصاء نظراً إلى أنها تحملُ آثار التدمير⁽¹⁾.

ألم القطيعة هو ألم انتزاع لا ينتهي، وانفصال يتكرّر عند كل استيقاظ، وهو انتزاع من عالم الحلم الذي غالباً ما يكون

Vincent Delecroix, *Ce qui est perdu*, op. cit., pp. 34-35.

(1)

متأخراً عن الواقع، الحلم في سلوى الذكريات، وحياة الشراكة السابقة، ومجال التصالح المأمول. فالكارثة، والعالم الذي ينهار، يتكرّران كل صباح، في نوع من العذاب الذي لا ينفك عن تأكيد ذاته. فأن ننفصل هو كما يقوله عن حقّ الروائي أنطوان ووترز، «أن ننفصل مرات لا تنتهي، طوال شهور وسنوات». أن نكون منفصلين، هو أن نعيش في عذابات فقدان، حيث التنفس قصير، والقلب منقبض، والحركات قلقة. هو أن لا نعود نرى سوى الغياب الذي يقفز أمام ناظرنا.

إلا أنها لا تتزحزح وتركز على الفراغ حولها، على جسد زيو الغائب، على انعكاسه في الشمس، في حين أنني كنت أتخيّل أن الانفصال عن أحدهم، هو أن نكون منفصلين عنه ليس مرة واحدة وإلى الأبد، وإنما العديد جداً من المرات، خلال أيام، وشهور وسنوات حتى يستنزف فقدان أخيراً ويتوقف الاستيلاء على القلب. وهكذا، كنت أقول لنفسي: أن ننفصل مرات لا تنتهي، طوال شهور وسنوات، حتى يعافك فقدان ويتركك شيئاً فشيئاً تعيش بسلام، إذا كان ذلك ممكناً⁽¹⁾.

Antoine Wauters, *Pense aux pierres sous tes pas*, Verdier, 2018, (1) p. 141.

لم تعد زوجة زيو ترى سوى الجسد الغائب، العالم المهجور. ذلك أن رؤية الغياب تُغشي الأبصار بشدة. إنها تفتقده، لقد كان المركز الذي يتقاطع العالم حوله، الشيء الأول، والمسرح الأول، والنقطة المحورية لبقية العالم. يتكرّر الانفصال من دون توقف، ويرد إلى الذهن في كل مكان يختفي فيه طيف المحبوب، وعندها تعاود الوخزات الداخلية نشاطها، وخزات الانفصال، والقلب الذي «نقره» الافتقاد، كما يقول ووترز جيداً.

وكّلما تقدم الوقت الذي يتراجع فيه الألم، يصبح الغياب أمراً مألوفاً. وتأتي اللحظة التي نقول فيها لذاتنا: «عجيب، أنا لم أعد أعاني إلى هذا الحد». وحيث نفاجئ أنفسنا، أو نشعر، بالصدفة أننا نفكر به أو بها دون أن نعاني كثيراً. أنا أفكر به ولم أعد أفكر «بك»، وهكذا نبدأ بالتعبير عن المحبوب بالشخص المفرد الثالث الذي تراجع إلى المؤخرة ونتكلم عنه بصيغة المبني للمجهول، إذ إنه خسر مكانة «الأنت» المتغلغلة في النفس، أنت الذي أريد أن أروي لك ما حدث لي، وما أخشاه، أو ما آمل به. يبدأ الانفصال في تلاشي الـ«أنت».

ومما لا شك فيه، هناك شيء من قبيل «شغل» الفراق، والانفصال، وإعادة تنظيم المجالات الفيزيقية والنفسية، وجهد التكيف على غياب الآخر. نفقدُ التعود على حضوره، وعلى الشكل الذي كان عالماً يتخذه، والذي كان يتمحور حول

طَيْفِهِ. نتقبّل دوران الكواكب، ونضع الملامح الأولى لآفاق حميمة جديدة. نألف الوحدة، ونصنعُ فيها مجالاً شخصياً لأنفسنا، لا يكون مجرد فراغ.

إلا أن الحب يتوقف أحياناً بشكل عنيف. ونستعيد فكرة نقطة القطيعة، أي لحظة الوقوع فيما هو غير قابل للإصلاح الذي يكسر العلاقة مباشرة. يصف ميلان كونديرا في قصته بعنوان لعبة الأوتوستوب بشكل مغاير هذا التلاشي المفاجئ للحبّ الذي تولّده الإهانة في لعبة الحب. كما أنه يتيح لنا أن نفهمَ بحذق كيف يمكن أن يبرز فجأة الشعور بالتعرّض للاعتداء أو الاغتصاب، في وضعية تتّصف مبدئياً بالتوافق المتبادل. يسمح الشاب، الذي مثّل دَوْرَ أخذ صديقه في سيارته بالمجان، يسمح لنفسه التفوه بكلمات نابية وإظهار ميول لا تتوافق مع حقيقته. فلقد أصبح من خلال سوقيته، وإذلاله لها، واستفزازها، كأنه شخص آخر. كل ما يقوله يندرج في إطار لعبة تمثيل أدوار، إلا أن هذا التمثيل يكشف بلا ريب عن حقيقته التي هي أكثر ممّا يقبل أن يعترف به. تتصف الحقيقة التي تبرز في هذه التمثيلية بالقسوة. وتحدث هذه الوضعية المختلقة تأثيراً واقعياً مباشراً: فيتلاشى حب الفتاة الشابة، متأذياً بشكل بالغ وفوري من هذه الكلمات، وهذه النظرات والحركات. وقتلت طريقته في امتلاكها جنسياً، وكأنها مومس، حبهما نهائياً: «ثم انتهى كل شيء». ابتعد الشاب

عنها، وشدّ الحبل المعلق فوق السرير. وانطفأ النور»⁽¹⁾.
 وإذا كان الوعي بانتهاء الحب يتخذ طابعاً مباشراً هنا،
 فمن المحتمل أن لا يظهر هذا الكسر غير القابل للإصلاح إلا
 بشكل بعدي، وذلك حين نكذب على أنفسنا كي نحفظ، بأي
 ثمن، بعلاقة لا نريد أن نتخلى عنها. إلا أننا نعرف بلا شك
 ومنذ بعض الوقت، في نوع من النغم المتنافر الذي يطاردنا
 خفية، أن بعض الكلمات، وبعض حالات الكذب والخيانة لن
 تمر⁽²⁾.

يمكن عمل كل شيء لتمديد قصة بشكل مصطنع نعرف
 أنها قد انكسرت في الواقع، أو يمكن أن نقرر أن نحسم الأمر
 رأساً، ونضع بعنف حدّاً لما أصبح يستنزفنا، من خلال تكرار
 عمليات الانفصال والعودة المصطنعة. تصف هيلين جستر،
 في عملها بعنوان دوار، الاختفاء المقرر عن عمد من قبل
 الراوية، التي أرهقت من خلال حالات ذهاب عشيقها وعودته

(1) Milan Kundera, *Risibles amours*, Gallimard, 1989, p. 115, § 12
 (الطبعة العربية صادرة عن المركز الثقافي العربي: ميلان كونديرا،
 غراميات مرحة).

(2) Philippe Forest, *Le Nouvel Amour*, op. cit., p. 124:
 هناك بعض الأشياء في الحب غير قابلة للإصلاح، لا ندركها في
 لحظتها، وتدفعنا إلى الكثير من التمزق، والملل، واليأس بشكل نهائي.
 يبدو ذلك ضخماً جداً ومحزناً جداً. فلا نريد أن نصدقه في البداية. إذ
 نقول لأنفسنا هناك دوماً إمكانية للرجوع إلى الوراء واستعادة العلاقة. إلا
 أننا نعرف، في دخيلة أنفسنا، الكذبة التي نستسلم لها، وأن المحذور قد
 حدث في الواقع.

المتكررة. وبعد أن أضناها عذاب الانتظار الذي حكم به عليها، قرّرت أن تقطع العلاقة معه نهائياً وكأنها توقفت عن الوجود في العالم⁽¹⁾، من خلال طقوس تنفيذ موت رمزي، يبيّن إلى أي حدّ يمكن لنهاية حبّ معيّن أن تُعاش بمثابة تعليق للحياة فينا، وكنوع من تجربة الجنون، تجربة «العدم»⁽²⁾.

Hélène Gestern, *Un Vertige*, suivi de *La Séparation*, op. cit., (1) p. 17:

«أن أتوقف عن الانتظار، وأن لا أظل معلقة بانتظار الرسائل، وأن لا أوجّد فقط من خلال دينامية خيبة الأمل واليأس. لا بد من الحسم رأساً. بعد أن طلب مني أن لا أرسل له البريد إلى منزله، كي لا أعرضه للحظر، صمت تماماً. تمنيت أن لا أرى أحداً، وقضيت عطلة عيد الميلاد في صمت تام، وكنت سعيدة لذلك. كنت أعرف أنني كنت بصدد القضاء على ما تبقى من علاقتنا، وأن تدمير العلاقة هذا لن يمر من دون قلق مضمّن. كنت أستقيظ ليلاً، وأنا مدركة أنني أدخل في حالة من الجنون، ومدركة خصوصاً لهذا الصمت الذي لا رجعة فيه».

(2) يمكن أن نقارن ما بين نص هيلين جستر، ونص آني أرنو بعنوان عشق بسيط حيث تجابه الروائية وضعية مماثلة -أي وضعية علاقة مع رجل متزوج تقضي وقتها بانتظاره- رافضة أن تقطع معه رغم الإغراء الدائم بأن تفعل: «الرغبة الملحة في القطيعة كي لا أبقى تحت رحمة انتظار ندائه، وكي لا أعيش المزيد من الألم، ولكن بالمقابل يبرز تصور ما يفترض أن يحدث في الدقيقة التي تلي القطيعة: أي سلسلة من الأيام المتتالية من دون انتظار أي شيء [حالة الخواء]. ولذلك قررت الاستمرار بأي ثمن -سواء أكان لديه امرأة أخرى، أو عدة نساء (أي عذاب أكثر إيلاماً من العذاب الذي أردت تركه من أجله). ولكن بالمقارنة بالعدم الذي تخيلته، بدت لي وضعيتي الحالية سعيدة، وبدت لي غيرتي نوعاً من الامتياز الهشّ لا أرغب أبداً في الخلاص منه...» (Annie Ernaux, *Passion simple*, Gallimard, coll. «Folio», 1991, pp. 45-46).

أن نقطع العلاقة أو أن نتعرض للهجر لا يشكلان أبداً تجربتين يمكن أن تقتصر على مدى محدود من وجودنا، وإنما تفترضان تمزقات حميمة وانسلاخات عاطفية، وإعادة تشكيل عالمنا بشكل جذري أحياناً. كما يلاحظ حالات قطيعة متسلسلة أحياناً. وما خبره كاتب رواية الانتظار في الخريف تمثل في تغيير الوجود في جميع وجوهه، حيث كانت القطيعة الغرامية السبب في أزمة تصدع عميق تطلب مجالاً حيوياً آخر (الريف)، وشكلاً مختلفاً من الحياة: «لقد تركت باريس كي أحاول نسيان نادين، وبالتالي أن لا يتعين عليّ أن أجابه يومياً ما يذكرني بها في هذه المدينة. كما حرصت على أن يؤدي تغيير المكان هذا إلى ألوان أخرى من القطيعة في وجودي»⁽¹⁾.

ينتشر انفجار القطيعة في العديد من المجالات. إذ تشكل القطيعة مع شخص معين في هذه الحالة نقطة الانطلاق لبداية أكثر عمومية. كما أنها نوع من القطيعة مع الذات واكتشاف كيان ذاتي آخر، من خلال تغيير المكان، أو في غياب هذا أو هذه ممن عرفونا جزئياً من خلال حبهم، ودمرونا جزئياً من خلال فقداننا له. يتمثل الأمر عندها في إعادة معرفة من نحن، حين نصبح وحدنا وفي موقع آخر. وكأنه في اختلال الحب، نتعلم كذلك شيئاً ما عن ذواتنا.

3

أن نصبح نحن ذاتنا

«قد يلزم أحياناً حياة بأكملها لقطع مسافة
الدرب الذي يقودنا من الخوف والقلق إلى
الوفاق مع ذواتنا. وإلى الارتباط بالحياة»⁽¹⁾.
شارل جوليه

يكون لدينا أحياناً الشعور بأننا لسنا ذواتنا، وأنا نلعب
مجرد دور، أو أننا على هامش حياتنا الفعلية، دون أن ننتمي
إليها، وكأن هناك نسمة هواء تمرّ دوماً بين العالم وبيننا، أو
كأن هناك غلالة من الضباب تجعله غير محدّد المعالم، ومن
دون طعم أو مذاق. هذا النوع من العالم ليس مصنوعاً لنا،
ونحن لا نستطيع أن نرضى به. لا يمكننا أن نشرح ذلك
الشعور، وإنما نحن نحسّه ببساطة، ونشعر بنوع من الضيق
والخجل لفكرة ذوباننا في هذه الحياة. نشعر بعدم الاستقرار،
والتوتر والضيّق. نحسُّ بفقدان شيء ما، وبحالة من عدم
الرضى، وبتوتر داخلي يتصاعد بطريقة ملحة بحيث يصبح من

Charles Juliet, *Dans la lumière des saisons*, P.O.L, 1991, p. 44. (1)

الضروري أن نقطع مع ما كنا عليه. نريد أن نكون كائناتاً آخر ولكن من دون معرفة من هو هذا الذي نريد أن نكونه، مع أننا على قناعة تامة بأن هويتنا الحقيقية لا يمكن أن تتفتح هنا، في هذه الأمكنة، ومع هؤلاء الناس، وفي هذا الواقع الذي يسبّب لنا الاختناق. هذا تأكيد عنيف بالضرورة. فكيف يمكننا أن نقول لمن يقتسمون هذه الحياة معنا والذين يهمننا أمرهم رغم كل شيء، إلى أي حدّ نرغب في التغيير؟ فالعبور إلى هوية جديدة هو بدوره قطيعة حميمة مؤلمة، إنه أزمة حقيقية. فلا يكفي أن نخلع الزي الرسمي لإعطاء حياتنا مدى جديداً.

يعيد شارل جوليه، في سيرة حياته بعنوان أشلاء، رسم هذا المسار الداخلي في كل جذريته وعنفه. إذ بعد موت أمه، عهدَ به طفلاً إلى أهل بالتبني، ودخل المدرسة الحربية في إيكس-أون-بروفانس، في الثانية عشرة من عمره، والتحق في سنّ العشرين بمدرسة الطبابة العسكرية في ليون. بدى الطريق محدداً بشكل كامل: أي أن يظلّ في المسار ويصبح طبيباً عسكرياً. إلّا أن حالة من عدم الرضى عن وضعه الراهن كانت تعتمل في نفس هذا الشاب، دفعته إلى ترك دراسة الطب بعد مضي ثلاث سنوات. أي قطع هذا المسار الذي يسير في خطّ مستقيم، والخروج من الصف، والتحرر من جزء من كيانه الذي ما زال سجين الأطر الضاغطة؛ فالقطيعة مع مَنْ سبق له أن كانه يمثلُ تحولاً من خلال القضاء على ما كان عليه، أي القطيعة مع ما كانه حتى تلك الفترة. إنه التخلص من أشلاء

حياة سابقة، تحولت تاريخاً ميتاً.

تعني مفردة أشلاء التمزق، الثوب الممزق أو الجلد المسلوخ. يكتف جولييه في هذا العنوان عنف القطيعة مع الآخرين ومع الذات، والانشطار الداخلي، المتبوع بأزمة شخصية مديدة. ذلك أن هذه القطيعة هي أيضاً حالة توهان، ولو أنها تخضع لضرورة ملحة. إذ لم يتبق من الحياة السابقة سوى أشلاء، مَزَقَ فقدت كل معنى وقيمة. ماذا يتبقى من كيانه بعد ذلك؟ ليس ذلك واضحاً، إذ من العسير أن ترى صورة ملصق ممزق. كما يتم عيش القطيعة بمثابة خيانة، وفعل جبان. إذ يبدو اختيار نوع آخر من الحياة من المستحيل تبنيه. نترك عندها حياتنا السابقة وكأننا لصوص.

تترك المدرسة الحربية كلصّ، دون أن تُخَطِر أحداً، ودون أن تودع أصدقاءك الأعزاء عليك. وستشعر بالندم خلال مدة طويلة من الزمن. ولكنك لن تعرف كيف تشرح لهم سبب مغادرتك [...].

لقد تحررت بعد قضاء إحدى عشرة سنة في الزي العسكري. وستشعر بنشوة السكر حين تقول لنفسك إن حياتك سوف تبدأ من جديد. سوف تشعر بفرح يبدلك على مدى عدة أسابيع. ولكنك لم تكن تدري أن ذلك سوف يدخلك في أزمة سوف تستمر ما يقارب العشرين عاماً⁽¹⁾.

(1) Charles Juliet, *Lambeaux*, Gallimard, coll. «Folio», 2005, p. 127.

ستكون كلصّ وتعاني الخجل لأنك أردت أن تصبح
شخصاً آخر، شخصاً مختلفاً. الخجل من طموح لا يسع
الآخرين سوى السخرية منه. ستكون كلصّ، لأنك تشعر في
دخيلة نفسك أنك لست منهم وأنه يتعين عليك الاعتراف دون
أن تجرحهم. كيف تعبّر عن الخيانة القديمة التي تعايشت معها
منذ عدة سنوات؟ وكيف تعترف بالأعذار الكاذبة المستمرة؟

وسوف تكتشف لاحقاً هذه البداهة الأخرى: فلأنك لا
تحب ما أنت عليه، يتوقف عليك أن تتحول، وأن تخلق
ذاتك من جديد. فأنت مسكون بضرورة معيّنة. وسوف
تساندك ضرورة التغيير هذه، وترشدك، وتقدم لك الإضاءة
الصغيرة التي سوف تتيح لك أن تشقّ درباً في ليل ضياعك.
ولكن كي تبني الجديد، يتعين عليك قبلاً أن تهدم
القديم، وتنظف المكان. بادئ ذي بدء عليك أن تحكم
بالموت على طفل القطيع هذا الذي يستمر في الحياة فيك.
والذي يعيش فيك بكل مخاوفه، وجروحه، وذكري ألوان
الإذلال التي تعرّض لها، وكذلك تمرّداته، وامتعاضه...
ثم عليك الذهاب إلى نهاية شوط الخوف. وإلى نهاية شوط
القلق، وإلى نهاية شوط مشاعر الذنب. وكذلك إلى نهاية
شوط كراهية ذاتك. وإلى نهاية شوط محنتك... وكل مرة
تصل فيها إلى النقطة القصوى، عليك أن تبقي عينيك
مفتوحتين، وتلاحظ، من قلب المعمة، وتسجّل،
وتكتسب تدريجياً معرفة صحيحة بكل ما يُكوّنك⁽¹⁾.

(1) المرجع نفسه، ص 139-140.

يشير الراوي تلك الضرورة الداخلية، المفروضة في البداية والتي تمّ اتباعها، وذلك قبل أن نشعر بتحرك نحو مكان آخر، نحو غيرية وجودية. هذا المسار نحو ذات أصيلة بدأ في الواقع ببطء، وبشكل خفي. وهنا تكون القطيعة قد وقعت، والشرح قد ازداد. تعتمل هذه الحركة في داخله وتوجهه مذ ذاك نحو توتر لا يقاوم. تلك هي اندفاع القطيعة، والسهم الداخلي الذي يرشد ويمزق في آن معاً.

وحتى قبل أن نقرّ بهذه القطيعة، وقبل أن نتعرّف إليها، هناك في داخلنا شيء ما نعرفه، وهي معرفة شبه عضوية بأن هذه الحياة تخنقنا وتعيقنا وتدفع بنا نحو المواقع التي يمكن لنا فيها أن نتنفس، ونتحرر وننتشر. يشكل ارتداد الذات هذا عملية هدم منتظمة، وحكم داخلي بالموت، وازدراء هذا الكيان المخنوق في زيه المُكَبَّل لانطلاقته. يتعيّن قتل طفل القطيع، ذاك الحيوان المنقاد للتجمّع الذي حوّلنا الآخرون إليه. يتعيّن أن نتعلم أن نكون وحيدين، وأن نعرف أنفسنا من خلال ذاتنا. يجب التخلّص من الطفل الجريح في داخلنا، وأن نشفي أنفسنا من حروق الماضي. يجب أن نعبر ليل المعاناة: أن نتخلّص من كل الصفات الملصقة بنا من الخارج ونتحمل قلق هوية خاوية. فالليل، الذي يشكّل لحظة القطيعة، هو وقت الصفاء الذهني، وتعليق الإرغامات، والمعايير والنظرات التي تحاكمنا. يوفّر الليل المدى الذي تتصف فيه التصورات بالحدّة، والحواس باليقظة التامة. في الليل، لا

يعود الكذب على الذات ممكناً⁽¹⁾. الليل يحرّر عنف الحقيقة، وبداهة الواقع، من خلال تمزيق حجب العادات. يتعين أن نعرف في نهاية المطاف من نحن: «أن تعرف ذاتك. وأن فيها نوعاً من الطفرة الوجودية. ومن خلال ذلك، يمكن توسيع الحدود، وتجاوز عقباتك، والتخلّص من ذاتك الراهنة، وبناء وجه جديد. وهكذا توفر لذاتك شروط حياة رحبة الآفاق، أكثر علواً، وأكثر حرية»⁽²⁾.

ماذا يعني أن «تبني لذاتك وجهاً»؟ من المعروف أنه تُرسم على محيانا تعابير أقاربنا وملازمهم، وصولاً إلى تجاعيد وجه أب أو أم، وكأننا ورثنا منهم حتى همومهم. نستعير منهم، رغماً عنا وحتى لو كرهناهم، علامات عائلية، أو حركات نموذجية، أو صوتاً منخفضاً أو حاداً جداً، أو تنفّساً مهموماً، أو سعالاً جافاً، أو ظهراً منحنيّاً، أو حواجب مقطبة. إذ لا أعود أرى على وجهي إلا ملامح أحد الوالدين، أو تاريخ آخر، أو الآثار التي تركتها الأحداث، أو علائم المرض، أو أرق الليالي، أو آثار العقاقير والكحول. فهذا الوجه المكتسب ليس حقاً وجهي.

أحياناً وجهنا هو من ينبّهنا، إذ يشكل الإنذار بالنسبة

(1) «تجد نفسك، ورغماً عنك وقد ركبت مركب التغيير، وعليك أن توافق على ذلك. في إحدى الليالي، وخلال لحظات الأرق المديدة تتوفر لك لحظات صفاء ذهني فائقة، حيث يتمزق الحجاب...»، المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص 142.

إلينا، ويقول لنا آن أوان أن نقطع قبل أن نتحول إلى واحد من الوجوه الأخرى، متخلين بذلك عن تفردنا: «أنا على حافة أن أصبح شبيهاً بهذه الرؤوس المدموغة التي تثير فيّ الذعر في صالون الحلاقة، عندما أراها منحنية إلى الوراء فوق وعاء الشامبو، وعيونها مغمضة. فبعد كمّ من السنين سأصبح مثلها، مع هذه التجاعيد التي لا يعود بالإمكان إخفاؤها، وكذلك علائم الترهل. هل أترك نفسي أصبح وجهاً كهذا؟⁽¹⁾».

وهكذا يتمثل أن نصنع لنا وجهاً فريداً، في أن نستدرك وننزع قناعاً فُرضَ علينا من خلال العادة، والألفة، والتقارب المفروض. أن نصنع لنا وجهاً أصيلاً يعني أن نمحو عن وجهنا كل ما هو ليس نحن، من تعابير اجتماعية أو عائلية، وأن نعيد رسمه على صورتنا الحقيقية. ننزع القناع، ونتقبل هذا الوجه الخالي من التعابير المستعارة، وجهاً مغسولاً بالدموع، والتعب. ومن ثم نرسم على هذا الوجه المنهك والمغسول من كل ما هو مستعار، ملامحنا الجديدة. إنه لمن المذهل دوماً أن نرى ما يعبر الوجه عنه ولوحده أحياناً، كوننا عبرنا محنة وتمكناً من تجاوزها. وإلى أي حدّ يتغير الوجه بعد نجاح دراسي، أو مهني، أو يشعّ تحت تأثير فرح الحبّ.

في عمل شارل جوليه، تصبح القطيعة ضرورية، إنها

Annie Ernaux, *La Femme gelée*, dans *Écrire la vie*, Gallimard, (1) coll. «Quarto», 2011, p. 432.

جذرية وتطرح ذاتها بمثابة الشرط اللازم لبروز أنا حقيقية . من الحيوي أن نتخلص من أنا زائفة، مُشكّلةً كلياً من قبل الخارج ومفروضة على الطفل بكثير من التصلب. لقد طور د. و. وينيكوت، الطبيب العقلي للأطفال والمحلل النفسي مفهوم «الأنا الزائفة». إذ تتجلى في بعض سلوكيات الأطفال والمراهقين العدوانية، والتي تبغي إزعاج المحيط، الحاجة إلى إثبات الوجود الشخصي. يشعر هؤلاء «بفقدان هويتهم»، ولا يحسون «أنهم موجودون» إلا من خلال المعارضة والاستفزاز، في فعل مقاومة لأنا اجتماعية مُدجّنة. فالعصيان يتّخذ عندها معنى تأكيد معارضتهم لمن حولهم، وعلى وجه أخصّ معنى تأكيد وجودهم الشخصي. إذ تخبرنا «نوبات العصيان» عن مدى قوة القيود والإرغامات الاجتماعية والأسرية التي تُفرض على الطفل، والتي يشعر أنها تشكّل تهديداً بالغاً له. إذ من خلال الامتثال المفرط للإملاءات والأوامر، لإرضاء من حوله، يغرق هؤلاء الأطفال في حالة من الإحساس بانعدام واقعية وجودهم، ويشعرون بأن كيانهم «زائف». يقدم وينيكوت مثالا على ذلك حالة ذلك الفتى، ابن أحد زملائه، الذي لم يتحمل أنه قد تمّ تحويله إلى تلميذ نجيب بعد أن كان خلال مدة طويلة من الزمن «طفلاً صعباً، وتلميذاً فاشلاً». يشكل هذا التحول إلى تلميذ نجيب بالنسبة إلى هذا الطفل مفارقة غير قابلة للتحمّل، إذ لم يعد يجد ذاته في هذه الهوية الجديدة. فلقد امتثل تماماً للتوقعات الخارجية بحيث برز لديه الشعور

بأن موتاً وشيكاً يتهدهده، وكأن هذه الأنا الجديدة تهتد بالقضاء على السابقة. ولذلك لم يعد يستطيع النوم خشية أن يتم طعنه بالخنجر فيما لو أغمض عينيه. إذ إن التطابق التام مع مثل أعلى مفروض يساوي الامحاء أمام إملاءات الخارج. يسبب هذا التحول إلى كائن آخر، يراد له أن يكونه، الحيرة والإحساس بالضيق، وهو لذلك يحاول أن ينقذ «ذاته» المهددة من خلال مقاومة هذه «الأنا الزائفة»، المفروضة عليه، وهذه الهوية المطواعة، التي يشبهها بهوية فتاة⁽¹⁾. وكما يذكره وينيكوت، إن قلق هذا الصبي العميق هو قلق الموت، إنه يخشى فقدان هويته، وأن لا يعود كائناً حقيقياً⁽²⁾، إنه قلق فقدان الكيان.

تفسر معاناة التلميذ المجتهد المفارقة المتمثلة في لماذا يختار بعض الراشدين كذلك الانحراف عن مسارات مهنية باهرة رغبة منهم بتأكيد شيء أكثر جوهرية في حياتهم. إذ يتم

(1) D. W. Winnicott, *Conversations ordinaires*, «Le concept de faux soi», Gallimard, coll. «Folio Essais», 1988, p. 96:

«ما يزعجني ولا أجد نفسي فيه، هو كوني أجتهد في المدرسة. إنه لأمر رهيب. وكأنني أصبحت فتاة».

(2) «كان هذا الصبي ذي السنوات العشرة من العمر قادراً أن يشرح لي أنه إذا اجتهد، فسيكون على وفاق مع والده، وإنما سوف يفقد عندها هويته، بعد مرور بعض الوقت [...] وهكذا رتب أمره بحيث يجعل الأساتذة يغضبون منه. وبهذه الطريقة يسترد كيانه الحقيقي». (المرجع نفسه، ص 97).

النجاح أحياناً على حساب خيانة ذاتية حميمة، ما يجعل هذا النجاح يتخذ طابع لعب كوميديا لا تطاق. قد أستطيع التمتع بكل مقومات نجاح مهني واجتماعي ولكن على حساب شعوري بأنني خسرت حياتي الأصيلة⁽¹⁾.

يمكن أن يكون لدينا الانطباع بأننا تماشنا مع رغبات الآخرين (خصوصاً الوالدين) من خلال تحولنا إلى هذا الشكل الخارجي من النجاح، مع تفويض جزء من ذاتنا إلى أخ، أو صديق، أو زميل يحقق لها رغباتها الدفينة نيابة عنا، وهو جزء من الذات نعاني بشدة من افتقادنا له. أما إعادة توكيد الذات بأسلوب «أكثر توافقاً مع ذاتنا الحقيقية» فإنه سيحمل معه تعديلاً عميقاً لوجودنا.

تتخذ القطيعة الحميمة بلا شك العديد من الأشكال، وليس لكل حالات القطيعة ذلك الشكل الجذري والحاسم الذي يعرضه شارل جوليه. إلا أن ركوب خطر أن نجد أنفسنا هو في الآن عينه ركوب خطر الضياع. فهذا المسار نحو إيجاد الذات يشكل في الغالب أزمة مرهقة، كما يعرضه جوليه

(1) Anne Dufourmantelle, *Se trouver*, JC Lattès, 2014, p. 34:

«يمكن أن نشعر بإرضاءات كبرى في مهنتنا، ومع ذلك نشعر بأن قسماً كبيراً من ذاتنا قد تمّ إهماله. [...] من الصعب جداً أن نُقرّ لأنفسنا [...] بأننا نعيش في دواخل نفوسنا نوعاً من الفشل، رغم مظاهر النجاح».

جيداً. فمسألة اكتشاف من نحن حقاً، أو ما نرغب أن نكونه ليست أمراً بديهياً، وإنما هي أحياناً ثمرة تساؤل عميق حول الذات. ولا تكون عندها مسألة هوية بقدر ما هي مسألة تضليل تدفع بنا لأن نصبح كائناً آخر، ودون أن نعرف بالضرورة إلى أين نحن سائرون. تُطرح ضرورة القطيعة بشكل سلبي في البداية [أن نكون شيئاً آخر]، إذ نجد في الإحباط أو الافتقار تلك القوة التي تمكّننا من انتزاع أنفسنا من وجود مكوّن من مظاهر زائفة. كما أن الخجل من أنفسنا هو ما يدفعنا إلى أن نصبح كياناً آخر. ومع أن القطيعة بحدّ ذاتها تلبي طموحاً إيجابياً بتوكيد الذات، وتفتحها، من ضمن مسار من الارتقاء ومنظور من الأصالة (أي أن نصبح ذاتنا الحقيقية)، هي في الآن عينه مصطبغة بمشاعر الذنب المصحوبة بإحساس بالخيانة. وكما يقوله عن حقّ الكاتب بيير برغونيون في عمله بعنوان الوجود مرتين، وهو عنوان كاشف، فلكي «نعبّر إلى الزمن الجديد»، ولكي «نولد مرة ثانية»، يتعين «أن نموت تخلصاً من العالم السابق». يتعين أن نتخذ منحى جديداً ونعمل على إزالة العالم السابق، «وهي عملية مكلفة»⁽¹⁾ نفسياً.

(1) «بعد إنجاز دراستنا الثانوية، انطلقنا جماعياً لأول مرة. اكتشفنا العالم الخارجي، والمدينة الكبيرة، والتعليم العالي، وكل ما فيه من أفكار. تعيّن علينا أن نموت تخلصاً من العالم السابق الذي نحمل آثاره، أي أن نقطع الصلة مع أنفسنا، ونولد مرة ثانية، في زمن جديد وعالم جديد، ونحاول أن نصير. عملية من هذا القبيل مكلفة، وليس من =

فالقطيعة ليست بتلك السهولة التي نتصورها. إذ تبينُ الانفعالات المصاحبة للعبور بين الطبقات الاجتماعية، حالة من استمرار التعلُّق بالبيئة الأصلية، مهما كان نوع ارتقاء الفرد الاجتماعي. فالانفصال ليس كلياً بأي حال من الأحوال. لن تبقى مشاعر خجل إذا لم نعد نحس أبدأً بالارتباط بالأقارب، وإنما نظلُّ نقبَلُ ما هُم عليه وما يمثلونه لنا، بشكل موضوعي. لقد تمثلت صورة أقاربي المتدهورة التي أصابت صورتي بالعدوى⁽¹⁾. تستعيد الفيلسوفة شانتال جاكيه تعبير «التذبذب الروحي» عند سبينوزا. فالروح تتذبذب ما بين عدة أقطاب عاطفية. تشترك كل أشكال القطيعة بهذا التجاذب الوجداني أو هذا التذبذب الداخلي لجهة تموضعها ما بين الارتباطات السابقة - أكانت عائلية أو عاطفية أو اجتماعية - وبين المطالبة الملزمة بالسعي إلى انتماء جديد.

فتوكيد قتل العالم السابق، وادّعاء قطع الروابط وطيّ صفحة الماضي، يتجاهلان قوة أشباح هذا الماضي، وذاكرة الجسد، وكذلك قوة العادات العاطفية، وحالات التعلُّق الطفلي. فلا يكفي أن نغادر مكاناً ما كي لا يعود يسكننا. ولا يكفي أن نترك إنساناً كي ننسى وجوده.

= السهل التغيير. (Pierre Bergougnieux, *Exister par deux fois*, Paris, Fayard, 2013, p. 15).

(1) Chantal Jaquet, *Les Transclasses ou la Non-reproduction*, PUF, 2014, p. 169.

فالقطيعة هي في الواقع انتزاع لا يني يتكرر، في حركة
ذهاب ورجوع داخلية، ومشاعر قلق. إنها تتمثل في عملية
تخلّ حميم، وتباعد وتهدة للعواطف. كما يتعين الألفة بعنف
المشاعر التي تثيرها القطيعة فينا. يتعين علينا أن نقبل بها
بمثابة الأثر الذي لا مفرّ منه للبلبلّة التي تحدثها القطيعة ونعمل
على ترويضها تدريجياً. وسواء كنا نحن من قمنا بالقطيعة أو
تعرّضنا لها من قبل الطرف الآخر، فإن القطيعة لا تمرّ مرور
الكرام.

4

لذّة التشّت

«قد لا نكون مخلوقين من أجل أنا واحدة فقط»⁽¹⁾.

هنري ميشو

إلا أن هذه التأويلات تفترض وجود أنا حقيقية، وهوية عميقة يمكن للضغط الاجتماعي أو العائلي أن يحشرها في هوية تحصر الفرد لحدّ الاختناق. تفترض أن هناك أناً حقيقية وأخرى زائفة. ويوجد وجه حقيقي وقناع. أن هناك شكلاً من البداهة أو الضرورة، نَعْرِفُ من خلاله بالحدس ما نحن عليه حقيقة. ولكن هل الأمر هو كذلك على الدوام؟ ألسنا مصنوعين من سلسلة من القطائع الصغيرة، ومن تلاصق هويات لا رابط بينها، تختلط فيما بينها تبعاً للظروف؟ وهل تعدو هويتنا كونها شيئاً آخر سوى ترتيب أشتات من الكيان التي ترتبها الصدفة من دون قانون أو ضرورة؟ والأدهى من ذلك،

(1) Henri Michaux, «Difficultés» [1930], dans *Plume* précédé de *Lointain intérieur*, Gallimard, 1963, p. 663.

أليس هناك لذّة في أن لا نُحشر في هوية واحدة، وحتى حاجة إلى أن نكون متعدّدين في العمق؟

حالات القطيعة الحميمية هذه التي تدفع إلى انبثاق ذات جديدة، لا تقتصر على كونها مؤلّمة، وإنما هي مقلّقة ومثيرة في آن معاً. إنها تسائل التمثل المؤسّس للذات، في ثباتها واستمراريتها، أي في ديمومتها. إنها تطرح سؤال وحدة الكيان الذاتي. من المحتمل أن لا نكون مخلوقين لأنا واحدة فقط، كما يؤكّده الشاعر هنري ميشو.

«أنا لا أعدو كوني مؤقتاً (متغير في مقابل آخر ما، ومتغير تبعاً لتغير اللغة ومجال الاهتمام) وأتحول إلى شخصية أخرى تبرز على إثر حادث، أو انفعال، أو صدمة على الجمجمة، تبرز فجأة في أغلب الأحيان، وبمعزل عن الشخصية السابقة، مثيرة دهشة الجميع. لقد كانت إذاً كامنة في أعماقنا. قد لا نكون مخلوقين من أجل أنا واحدة فقط. ونحن مخطئون في التمسك بها وحدها. إنه الانحياز لوحدة الكيان»⁽¹⁾.

هل أعدو كوني شيئاً آخر سوى ما تجعلني الحوادث أصبح عليه؟ لماذا إذاً الاعتقاد بذات ثابتة، ألا يوجد بالأحرى ما لا يُحصى من الشخصيات التي تنبثق تبعاً للظروف؟ أو ليس

(1) المرجع نفسه.

ما أنا عليه هو مفاجأة على الدوام؟ يبدو أننا نتعامى من خلال التحيز لوحدة الكيان كما يقول ميشو. إننا ننطلق من المبدأ القائل بوجود هوية ثابتة وفريدة لكل فرد منا، ونتخيل أننا شخصية محدّدة المعالم، بينما قد لا نعدو كوننا مجرد أدوار تمثيلية. فلماذا إذاً هذا التفضيل التلقائي لوحدة الذات؟

قد يأتي «تحيز وحدة الكيان» من قواعد اللغة، كما يقترحه نيتشه. إننا نعتقد أن هناك أنا لأن لغاتنا تُصرّفها [أنا، أنت، هو -]. هناك على ما يبدو شخص أول، في تصريف الأفعال هو «أنا» يشكّل فرادة مطلقة. ترسّخت فكرة وحدة الذات هذه عميقاً في نفوسنا ومنذ وقت طويل. وتتجلى منذ بواكير الطفولة الأولى: «ركّز على ما تفعل، وتوقف عن تشتيت انتباهك». هكذا يبدأ بلا شك البناء التدريجي للمثل الأعلى للذات الموحّدة، القدرة على التركيز على أمر محدّد، وبالتالي تتوحد، وتأتلف، في كائن واحد.

ومع ذلك، نحن لا نتوقف عن التبعض ونتحمّل وجودنا لأننا قادرون تحديداً أن نكون ذهنياً في مكان آخر، ولأننا نستطيع أن نلعب مع الواقع وندخل عليه الازدواجية من خلال برقع متخيّل، ولأننا نراكم دوماً فوق الواقع إسقاطات، وصور متخيّلة، كي نجعله محمولاً.

نحن بحاجة إلى أن نكون عدة أفراد مختلفين، كي نستريح من الأول من خلال إيجاد الآخر، تماماً مثل مشاهد الأفلام الأميركية القديمة حيث يتوقف الأب عن وضعه بمثابة موظف

طبقة وسطى، عندما يعبر عتبة المنزل وينزع ربطة عنقه بحركة ذات دلالة رمزية عالية، وكأنها كانت نوعاً من القيد أو الرسن، ويتناول كأساً مليئاً من الويسكي.

إننا جميعاً بحاجة، سواء كنا رجال أعمال أو سواهم، أن ننزع عنا سترتنا، ونترك أنفسنا نسترخي على الأريكة، وبالتالي أن نصبح آخر، من خلال هذه الوضعية وحدها، فنتبّنى وضعاً جسدياً يريحنا ويحرر الذات غير النشطة فينا. لا يتمثل الأمر في مجرد لعب أدوار مختلفة، وإنما لأن كياننا ليس واحداً، وهو يتجلى بعدة أوجه. كان برغسون يحب صورة المِشْكال(*)، التي يمكن تطبيقها على الذات: فالفرصة والوضعية تجعلاني أصبح كائناً آخر. إذ يمكنني أن أفصح عن وجه آخر من كياني غير ما كنت أعتقد أنني عليه. إذ تتصف مروحة هوياتي بالتنوع والامتداد. بإمكانني أن أندفع بشجاعة كبيرة في وضعية خطر معيّن، أو أبدي تفانياً والدياً غير متوقع، أو أن أخذل أهلي وأصدقائي، وأتصرف بجبن.

ليست فكرة تعدد الذاتية، والقصور الجذري بوحدة الذات بالأمر الجديد. فلقد شغلت الفلسفة زمناً طويلاً، كما يذكر الفيلسوف كليمان رُوسِيه في إحدى محاضراته المكسيكية. إذ تبّنى رُوسِيه بمنتهى الجدية إمكانية فراغ الذات الجذري، ما

(*) مِشْكال (Kaléidoscope): أنبوب أسطواني يحتوي جداره الداخلي على قطع مرايا ملونة. وعندما نديره تظهر صوراً لونية متغيرة على الدوام، وهو تعبير مجازي على تغير أحوال الوجود وتعددتها. (المترجم)

أثار دهشة معاصريه. ففي رأي هؤلاء لا يمكن أن يعدو قوله هذا مجرد نكتة:

إن فكرة امتلاك كل منا لهوية شخصية، تتضمن وحدة النفسية والخصائص، تستمر طوال الحياة، مكوّنة نوعاً من الواقع الدائم، لا تقدر أي صروف كيانية أن تغيرها، هي اعتقاد لا يمكن لأي تفكير نقدي، كما يبدو، أن يززع بدايتها. [...]

لدرجة أنني حين نشرت كتاباً بعنوان بعيداً عني، حيث شككت بوجود هوية شخصية مختلفة عن الهوية الاجتماعية، فوجئت بقراءة مراجعات نقدية للكتاب تقدم المديح لمحاولتي هذه التي اعتبرها هؤلاء النقاد بمثابة مفارقة مسلية ولكنها لا تعدو كونها بالنسبة إليهم مجرد مزحة لطيفة. ذلك أنه في نهاية المطاف أنا أنا وهو هو، ممّا هو واضح للعيان والكل يعرفه. إذ لا يجدي الكابتن هادوك أن يلبس لباس حديث النعمة ويتحلى بخصاله في بداية القصة المصورة سبع كرات كريستال، فسوف يظل هو الكابتن هادوك على كل حال⁽¹⁾.

يتضح جيّداً في هذه السطور أن فكرة الهوية الشخصية هذه تستند على تصوّر أنا معتبرة بمثابة قلعة داخلية. فما أنا عليه،

Clément Rosset, *Tropiques. Cinq conférences mexicaines*, (1) Éditions de Minuit, 2010, pp. 31-32.

لا يمكن لأي شيء أن يهزه، أو يسقطه، فالأنا راسخة، لا تتحول، ولا يُنال منها: فلا شيء يمكنه أن يجعلني أصبح شخصاً آخر. يمكنني أن أتسلى بالطبع في تمثيل دور شخص آخر وأن ألبس قناعاً، إلّا أنني أبقى في العمق ما أنا عليه. أنا هو أنا، كما يُقال، وكأن هذا التكرار للأنا هو التعبير عن بداهة مطلقة. ولكن ما هو مطلق، هو قلقنا في أن لا يكون لنا «أنا»، أن نكون مطواعين نطفو على سطح أحداث الحياة. ولكن مع ذلك ماذا لو كنا لا نستطيع أن نستحم مرتين في الأنا نفسها؟ وماذا لو كنت أكثر تذبذباً، وتحولاً ممّا يمكنني أن أتصوره، أو أريد أن أتصوره؟ يذكّرنا رُوسيه أن هذه الفرضية ليست مجرد طرفة استفزازية. إنها المعنى العميق لتساؤلات باسكال في عمله بعنوان أفكار⁽¹⁾. فقد بحث كل من مونتيني وهيوم جدياً مسألة لا واقعية الأنا. «ذلك أن هذه الأنا غير جليّة للعيان»، كما يؤكد هيوم. على ماذا نؤسّس وجودنا في هذه الحالة؟ ألا يعدو كونه في نهاية المطاف سوى التعبير عن القناعة وخصوصاً عن القلق، بأن لا نكون شيئاً في الأساس؟ أوليست هذه الوحدة، التي يمكن لذاكرتي أن تُضمّنها، مشكلة

(1) «هذه البداهة المزعومة هي خادعة، كما أقرّها بشكل لا مجال للتشكيك فيه، بتقديري، فلاسفة كانوا أبعد ما يكون عن الأذهان المازحة. وذلك على غرار باسكال والعديد من انتقاداته للأنا كما ترد في عمله بعنوان أفكار. [...] ذلك أنه إذا كانت الأنا قابلة لأن تكون مكروهة، يعود ذلك أساساً إلى أنها غير موجودة، على الأقل بمثابة كيان شخصي» (المرجع نفسه).

الخيطة الموجّه لاستمرارية داخلية، مجرد وهم؟ ومن يقول لي إن ذكرياتي هي فعلاً ذكرياتي أنا؟ من الممكن كذلك أن لا تعدو كونها في نهاية المطاف مجرد تجميع ذكريات الآخرين، أُعيد تشكيلها كيفما اتفق، تبعاً لتحولات الأحداث، كما يقترحه روسيه، الذي يستعيد صورة المُشكال لدى برغسون: «ذكرياتي هي بمثابة مُشكال يمكننا ربما إعطاء صفة أبوتها إلى العديد من الأشخاص بمقدار عدد الذكريات، وذلك على غرار القطع المضافة التي يتحدث عنها مونتين»⁽¹⁾.

سواء مُشكال، أو خليط، كم من الأشخاص يوجد في الأنا خاصتي؟ وما الذي يقلقني في ذلك؟ وهل هو أمر مأساوي أن أكون متعددًا، وبالإمكان أن أكون مختلفاً على الدوام؟ أوليس ذلك أكثر إثارة من أن أكون سجين هوية ثابتة، ومستقرة؟ وبالإمكان التساؤل فيما إذا كانت صيغة الوجود الأحادي هذه ممكنة. هل بالإمكان أن لا نكون سوى ذوات متغيرة وتتصف بالسيولة؟ وفي نهاية المطاف، ألا يوجد لذة في أن نكون مغايرين على الدوام؟

بالنسبة إلى المحلل النفسي ج. -ب. بونتاليس، تعطي مختلف شرائح الحياة، والأدوار التي تجعلنا نلعبها، لوجودنا شكلاً غير متماسك تقريباً؛ فهي تشبه نوعاً من توالي المشاهد الحلمية من دون رابط يربطها، ولا منطق واضح، ما يولّد لدينا إحساساً من التبعر المزعج:

(1) المرجع نفسه، ص 34-35.

يتصف بعض من نهاراتي بالتفتُّ الواضح، وتجعلني أقوم بأدوار شديدة التنوع، ومن الممكن أن تتعارض فيما بينها، تماماً كما يحدث في تلك الأحلام التي تجعلنا نتجول في أماكن مختلفة، وتُعرض أمامنا وجوه وشخصيات لا رابط واضح بينها بحيث تترك لدينا عند الاستيقاظ إحساساً مؤلماً بالتبعثر⁽¹⁾.

يبدو أن بونتاليس يشكو من عدم تمكنه من الثبات على أحد هذه الأدوار كي يتمتع به تماماً. إلا أن هذه ليست مجرد أدوار، وليست مؤلمة فحسب. بل هي أوجه من هويتنا وهذا التنوع تحديداً هو ما يسبغ القيمة والألم على حياتنا. وعلى العكس من ذلك، فإن وجوداً مختزلاً في دور واحد وتوزيع وحيد، سوف يؤدي بنا إلى مجرد تكرار محض، نحكي فيه كل يوم وبشكل كاريكاتيري ما سبق أن عشناه. التحول هكذا إلى آلة تكرر ذاتها هو الموت الوجودي عينه. يتعيّن علينا مقاومة إغراء الجمود، وغواية وجود المادة، ومقاومة سهولة الهوية الجامدة بحيث لا ندع أنفسنا نغرق في نمط وجود حيث لا يعود أي شيء يتصف لا بالجدّة ولا بالحيوية⁽²⁾. ينبّهنا برغسون قائلاً: لا يجب علينا أن «نساق إلى العادات الآلية

J.-B. Pontalis, *En marge des nuits*, Gallimard, 2010.

(1)

(2) انظر Henri Bergson, *Le Rire*, PUF, 1991, p. 22.

السهلة التي تعودنا عليها»⁽¹⁾. ساعتها سوف نصبح أضحوكة على الرغم منا.

بالإمكان عندها الدفاع عن فكرة الضرورة الأساسية لهذا التبعر. ولكي يتخلص الإنسان من التوتر الذي يثيره السعي لأن يكون ذاته، قد يحتاج إلى مضاعفة الأدوار الشخصية التي تحركه. كان برغسون أول من أكد على التعب المتولد عن كوننا شخصاً واحداً، وعن التوتر الذي تفرضه على الوعي هذه الاستمرارية الداخلية الموحدة للكيان، وبيّن لحظات التشتت التي تتوفر أحياناً. فالضحك والحلم، وكذلك الخلل المؤقت لعمل الذاكرة أو الإدراك لا تعدو كونها لحظات تشتت، وتراخي الوعي المُتعب من هذا التركيز المضني⁽²⁾.

يهتم برغسون في محاضراته في مدريد حول الشخصية، بظواهر ازدواجية الشخصية أو تدني ترابطها، «وهي ظواهر استثنائية» حيث تحدث حالات «القطيعة، وشروخ الشخصية»: «يبدو أن التجربة تثبت أن مجرى [الحياة الداخلية] هذا يتوقف

(1) المرجع نفسه، ص 14.

(2) Élie During, «Introduction», dans Henri Bergson, *Le Souvenir du présent et la fausse reconnaissance*, PUF, 2012, p. XXVIII:

«أن تكون إنساناً، وأن تكون شخصاً [...] يتطلب جهداً تكيفياً مستمراً، ولهذا من المتعب حقاً أن تكون شخصاً. [...] إذ يتهددنا دوماً تشتت أو تراخي أساسي، وتعب وجود يقطع «الجهد المضني» المطلوب كي نعطي لأفكارنا وأفعالنا الاستمرارية التي تُعرّف الواحد منا».

أحياناً، وأن استمرارية الحياة الداخلية تتفتت إلى قطع مستقلة عن بعضها البعض»⁽¹⁾. يشكك برغسون بإمكانية انهيار الشخصية، ويتابع قائلاً: «لا أعتقد أن الشخصية يمكن أن تتحطم إلى ألف قطعة على غرار كأس زجاجي»⁽²⁾. ويفضل برغسون تصوراً للوعي أكثر مرونة؛ فينضغط أو يتراخي، بدلاً من تصور مادة صلبة قابلة للكسر.

يتعين على هذا الوعي أن يكافح باستمرار ضدّ إغراء الانسياق وراء عدم الاستمرارية، والاسترخاء. «ولكي نترك تدفق الحياة الداخلية، من دون توقّف، يجب الحفاظ على نابض فولاذ مضغوطاً. [...] يتمكن الإنسان من الحفاظ على النابض مضغوطاً، وعندها يبقى تدفق الحياة الواعية ناشطاً دون أن ينشطر إلى أجزاء. إلّا أن ذلك يتطلب جهداً، كما يمثل جهداً مضمناً. وإنه لمن المتعب أن تكون شخصاً واحداً»⁽³⁾.

يقول برغسون إن الطبيعة تقدّم للذات التي استنزفها هذا الجهد، نوعاً من «العطلة»، وهو ما يفسّر سبب بعض ظواهر النسيان، وازدواجية الشخصية التي يقوم بدراستها⁽⁴⁾. إذ نضع

(1) Henri Bergson, *Conférence de Madrid sur la personnalité* (1916), dans *Mélanges*, PUF, 1972, p. 1224.

(2) المرجع نفسه، ص 1225.

(3) المرجع نفسه.

(4) انظر المرجع نفسه، ص 1226.

هنا شخصنا السوي أو المعتاد بين قوسين وننغمس في شخصية أخرى كي نتخفف من الأعباء. نقدم لذاتنا، في فعل الانفصال هذا، خفة أن نصبح شخصاً آخر. ولكن لماذا يتعين أن لا يحدث هذا التخفيف إلا على مستوى لا واع ومرضي؟ ولماذا لا نفكر بهذا التذبذب من نمط من الكينونة إلى نمط آخر بمثابة نوع من الأخلاقيات الحياتية، التي تتيح تحديداً عدم الوصول إلى نقطة الاستنزاف التي يولدها التركيز ووحدة الكيان؟ ولماذا لا ننظر إلى الذات باعتبارها مكونة من خطوط على غرار الأنغام، يمكن لأحدها أن يلي الآخر أو يحل محله؟

وبالطبع، فليس من مرغسون يمكن أن نستقي عناصر أخلاقيات كهذه، إنما هو من يوفر لنا الدروب التي تتيح لنا التفكير بالتعددية الداخلية، والتي نفقدها تدريجياً بمقدار ما نتقدم في العمر:

قد يكون من المفيد جداً أن نبين كيف تُعرض علينا، خلال مسار وجودنا، شخصيات عديدة متنافسة فيما بينها، يتعين على حياتنا أن تختار من بينها. [...] ومن اللافت للنظر، خصوصاً أثناء الطفولة، كيف يرتسم تعدد الشخصيات الأخلاقية الافتراضية هذه. [...] ولنفترض أنه من ضمن احتمالات المستقبل العديدة هذه، يتحقق أكثرها تفوقاً، وأكثرها تعقيداً عن كل ما عداها؛ يتعين عندها التضحية بكل الأخرى ما يؤدي إلى خسارة العديد من الإمكانيات إلى الأبد. كذلك هو الحال في العبور من

الطفولة إلى الرشد. فبمقدار ما نتقدم في الحياة، نرمي وراء ظهورنا العديد من الشخصيات الممكنة.

وماذا لو كان الأمر عكس ذلك؟ وماذا لو تمثّل النضج، بالمقابل، باستثمار هذه الشخصيات المختلفة، أو على الأقل استثمار كفيات مختلفة من الوجود؟ يجعل برغسون من كلّ من الفنان، أو الشاعر، أو الروائي، ذلك الإنسان القادر على إسباغ الحياة على الشخصيات الافتراضية التي يحملها، من خلال تحويلها إلى شخوص أدبية. وإذا كان كل منا، نحن العاديين، يتخلّى عن غالبية هذه الشخصيات الممكنة بمقدار تقدّمه على مسار الوجود، فإن الفنان يجعل منها، على العكس، شخصيات إبداعه الفني. وفي نهاية المطاف، إذا كان الفنان يتمكن من إخراج «كل هذه الشخصيات من ذاته» و«يجسّدها» في عمل فني، لماذا لا نكون قادرين مثله على تجسيدها في حياتنا؟

ولماذا لا نعيش خمسين مرة⁽¹⁾ من خلال شخصيات مختلفة، بدلاً من مرة واحدة؟ سوف نفكر عندها بحياة ذات عدة تفرّعات، على غرار أغصان الشجرة، وليس بحياة تتابع من خلال إلقاء كل الممكنات وراء الظهر. حياة لها القدرة

(1) انظر المرجع نفسه، ص 1217: «دون كيخوته، وسانشو بانسا (...). هما الشاعر نفسه، إنهما سرفانتيس نفسه، كما كان بإمكانه أن يكون، حياتاهما هما اللتان كان بإمكانه أن يعيشهما فيما لو عاش خمسين مرة بدلاً من مرة واحدة».

على فتح خانات أخرى، بمقدار ما تسير نحو توكيد الذات، وتخاطر بتبني أشكال أخرى، ونشر إيقاعات أخرى، وصيغ أخرى من الوجود، وتكتشف بذلك كامل إمكاناتها. لماذا لا نفكر بتنمية هذه القدرات بدلاً من أن نتخيل أنه يتعين علينا التخلي عنها؟ ألا يمكن أن نصبح نحن ذاتنا إلا من خلال اختزال الممكنات هذه وخسارتها؟

ذلك أن كل هذه الممكنات تشكل فرصة جيّدة ورصيдаً موجوداً لدينا حين يتعرض وجودنا للمحن والانكسار، ويتعرض لخسارة لا تعوض. ويمكن أن نتصور أن هذه الشخصيات المختلفة التي يتحدث برغسون عنها ليست في حالة تنافس فيما بينها كما قال، وإنما هي تتعايش، وأن إحداها محلّ محلّ الأخرى، وأنها تتساند وتتداخل وتغذي بعضها البعض. وبهذا لا أخسر الطفل الذي كنته، بل هو يبقى فيّ على الدوام، ومعه يستمر غنى هذه الممكنات: «لدينا كل الأعمار في كل لحظة»⁽¹⁾.

يخلّصنا هذا التكوين الداخلي من الهويات، والأعمار، والحساسيات، والخبرات المعاشة، من عبء أن لا نكون سوى ذاتنا، ويسمح لنا بتبعثر سارّ ومحفّز لكياننا. كما يمكننا

(1) Pierre Bergounioux, *Exister par deux fois*, op. cit., pp. 157, 185:

هكذا يقتبس بيير بورغونيو قول المحلل النفسي غروديك: «أنا، ظاهرياً، السيد صاحب السن الفلاني، الذي أوصلني العمر إليه، ولكن، في الداخل أنا الدمية الروسية التي تتضمن سلسلة الدمى المتداخلة التي عشناها وكنّاها على مرّ الأيام».

أن نفكر بمسار حياة معينة بمثابة حركة «تبث الحياة في الأطياف التي تحيط بنا [...]»، وتبث طاقة جديدة فينا⁽¹⁾.

لا بدّ بالطبع من الإشارة إلى الاستنزاف الممكن عندما نتحمل هذه الهويات المتباينة، التي تُعاش بمثابة إملاءات اجتماعية، وثقافية، وأسرية، ومهنية. يولد التعب النابع من كوننا نحن أنفسنا من تعدّد الأدوار التي يتعيّن أن نلعبها لنكون بالمستوى المطلوب⁽²⁾. أي أن نكون أماً صالحة، وزميلة فعّالة وجديرة بالثقة، وامرأة منظمة، وعشيقة مرغوبة دوماً. ومنذ اللحظة التي تصبح فيها كل من حالات الوجود هذه عبئاً مفروضاً، سيصبح من الصعب أن نرى في ذلك تشبّثاً للذات مثيراً للحماس، وتوزيعاً سعيداً لتوازنات الحياة.

ولا ينبغي بالمقابل إنكار واقع حالات التفكّك المرضي المأساوية. يمكن في هذا المقام الإشارة إلى كلمات موباسان، الذي وقع ضحية نوبات جنون رهيبة، ولحظات ازدواجية الشخصية أو الهلاوس: «كم أتمنى أن انفصل عن ذاتي»⁽³⁾. ليس من الممكن دوماً أن نتخلّص بهدوء من ذاتنا من خلال الحلم، أو الكتابة، أو السفر، ولا نتوصل دوماً إلى «الانفصال

(1) Henri Bergson, *La Pensée et le Mouvant*, «L'Intuition philosophique», PUF, 2011, p. 142.

(2) انظر Alain Erhenberg, *La Fatigue d'être soi*, Odile Jacob, 1998.

(3) ذكره ج. -ب بونتاليس في *En marge des nuits*, op. cit., p. 48.

عن ذاتنا، دون أن ننهار، ونقع في الفوضى التي يختلط فيها كل شيء»⁽¹⁾. تشكُّل أسطر هنري ميشو، التي شكلت نقطة انطلاق هذا الفصل، صدى مَعْيُوش تفكُّك شخصية المَرَضَى الذين يعانون من المرض النفسي الشديد. لن نكون عندها بصدد «عطلة» كما كتب برغسون، وإنما بصدد هجر حقيقي للذات أو تفكُّكها الداخلي. «بالإمكان الاختفاء من الذات من خلال إيصالها إلى حالة القحط الداخلي، أو من خلال إخمادها، ولكن أيضاً من خلال تفتيتها الداخلي...»⁽²⁾. حين تتخلى الذات عن جهد توحيدها، ولا تعود تطبق التوتر الذي يتطلبه هذا التوليف لها، نرى عندها الشخصية تتصدع وأحياناً تتكاثر في نوع من الفوضى الداخلية المؤلمة والمأساوية⁽³⁾. وكما يذكر دافيد لو بروتون، يتخلى المريض لا إرادياً عن «وجهه واسمه الفريدين» اللذين يغرسانه ويحدّدانه في مجتمعاتنا. عندها يتحول المرض النفسي إلى نوع من الهروب من الذات، عندما تصبح هويتنا غير قابلة للاحتمال، وعندما يتعذر أي نوع

(1) المرجع نفسه.

(2) David Le Breton, *Disparaître de soi*, op. cit., p. 72.

(3) انظر المرجع نفسه، ص 73: «وحدة الذات هي، في العادة، عبارة عن جهد فردي، ومقاومة للتفكك الذي يتهدّد بها. في بعض الظروف، خصوصاً الصادمة منها، تنقطع وحدة الشخصية، وتتصدع، وتتعدد. يشكّل الانشطار عندها نوعاً من الدفاع. وهو يتعارض مع المفهوم الخاص عن الشخصية في مجتمعاتنا، حيث لا يشكل الفرد سوى شخص واحد، ذي وجه واسم فريدين، وحالة مدنية، وتاريخ خاص به».

آخر من الهروب. هكذا تحلّل الفيلسوفة كاترين مالابو، مشيرة إلى «تحويل من خلال التدمير»⁽¹⁾. يختفي الشخص، في هذا التحويل، ويهجر هويته، في نوع من التفكك الذي لا يتيح أي نوع من شخصنة الذات⁽²⁾. وهنا لا يبقى حتى ما هو مأساوي إذ لا تبقى هنا ذات كي تعيش وتعاني⁽³⁾.

وحين لا يؤدي تبعر الذات هذا إلى مآزق نفسية مدمّرة، فإنه يسائلنا بعمق في الطريقة التي نتجلى فيها لأنفسنا. من الممكن أن لا نصبح «نحن أنفسنا» صدفة وإنما تبعاً لضرورة أساسية. فالطريقة التي ننبثق فيها لذاتنا لا ترجع بالضرورة إلى القرار والقطيعة الاختيارية. إذ تنبثق فينا أحياناً ذاتية غير متوقّعة

(1) Catherine Malabou, *Ontologie de l'accident*, Léo Scheer, 2009, pp. 17-18:

«التحويل من خلال التدمير ليس مكافئاً للهروب، إنه بالأحرى الشكل الذي تتخذه استحالة الهروب. استحالة الهروب حين يُطرح الهروب مع ذلك بمثابة الحل الوحيد. يتعين أن نفكر باستحالة الهروب في تلك الوضعيات حيث يدفع توتر أقصى، أو ألم، أو ضيق نحو خارج عن الذات غير موجود».

(2) انظر المرجع نفسه، ص 18: «تكوين هوية تهرب من ذاتها، أي تهرب في استحالة الهروب من هذه الذات. هوية مهجورة، ومفككة مرة أخرى، لا تعود تفكر في أحوالها، ولا تعيش تحولها الذاتي، ولا تجعله ذاتياً».

(3) انظر المرجع نفسه، ص 21: «التبدل لا يعدو كونه سوى أكثر جذرية، وعنفاً؛ إنه يفتت بشكل أقصى. وعندها لا تعود أسوأ انشقاقات الذات عن نفسها، ولا أخطر الصراعات ذات طابع مأساوي».

من خلال مجرد ضربة حظ. نصبح عندها ذاتنا من خلال مفاجأة، أو حادث من نوع ما، ومن دون مقدمات. تظهر الذات أحياناً حيث لا نتوقع ظهورها⁽¹⁾. لسنا هنا بصدد هوية تمرُّ بالاختبارات والمحن فتتصلَّب وتترسَّخ، وإنما بصدد ذات غير متوقَّعة، وغير مسبوقة، وبنتٍ لحظتها: «كلا، ليس تَجَلُّ لخصائص راسخة، سابقة على المحنة وتبرز من خلال ضربات القدر القاسية، وإنما الجواب التلقائي الصاخب، على هزيمة شوَّشت المرجعيات الذاتية: اختراع ذاتية لأنفسنا على عجل وكأننا نعطيها قواماً متماسكاً»⁽²⁾.

يستكشف هنري ميشو، في عمله بعنوان ذراع مكسورة فكرة شكلٍ جديد من الحياة والهوية، تتجلى إثر صدمة عقب حادث ما، أو سقوط، لا خطورة له من حيث المبدأ. تشكل هذه الفكرة مع ذلك فرصة لاستكشاف شخصي متعمِّق وطريف. نكون عندها بصدد استكشاف كل عنصر من عناصر هويتنا، وكل جانب من جوانب كياننا، ذي الوجوه المتعددة، والتي تتجلى لناظرنا حسب حوادث الوجود. يدفعه هذا السقوط البسيط إلى التمحور حول ذاته، ويجرّه إلى التفكير حول تقلُّبات الأنا. فمن خلال اكتشاف كيانه الأيسر، وتدني مهارة حركاته، يتجلى له كذلك أسلوب من الوجود المتردد والخبول، يمتلك أحد أبعاد شخصيته التي كان يجهلها.

(1) انظر 13 p. *Recommencer*, op. cit., Mathieu Potte-Bonneville.

(2) المرجع نفسه، ص 14.

5

الكائن المصاب بحادث

«كم كنت أود لو أني ما تألمت عبثاً»⁽¹⁾.

هنري ميشو

يطرح هنري ميشو، في عمله بعنوان ذراع مكسورة، قطيعة كيانية سخيفة. لقد انزلق، ووقع. ولكن ما تعرّض للكسر في هذا السقوط ليس فقط مرفقه الأيمن. وإنما كيفية من الوجود في العالم، تلك الألفة والسهولة في الوجود. «لقد وقعت. كياني الأيسر وحده هو الذي نهض ثانية، بينما أصبح كل شيء محايداً تماماً»⁽²⁾.

ما يكتشفه ميشو هو كيانه الأيسر. إنه كيان متعثّر، إلا أنه كيان آخر أيضاً. غريب عنه، ويمتُّ إليه في آن معاً: «كيانه الأيسر». على أن هذا السقوط لا يتصف بأي شيء خارج عن المألوف، ولا بأي شيء مذهل بالمعنى الحرفي: إذ إنه لا يرسخ عليه، ولا يظهر للعيان، ولا يترك سوى القليل من

(1) Henri Michaux, *Bras cassé, Fata Morgana*, 1973, p. 16.

(2) المرجع نفسه.

الآثار المرئية. يتعجب ميشو لهذا الفارق ما بين الإشارات الضئيلة، وعنّف هذا الحادث الذي أحسّ به، والذي طرحه أرضاً بكل معنى الكلمة. «الأوراق الأبرية المتساقطة لشجرة الأركس التصقت بسترتي الصوفية الزرقاء وسروالي الذي اتّسخ. هذا كل ما التقطته ثيابي من الحادث الذي غيّرنى كلياً، وحولني إلى معاق»⁽¹⁾.

المعاق هو ذاك الذي خسر من صلابته، ومتانته الفيزيكية، والنفسية كذلك. يحول السقوط الشخص كله إلى كائن هشّ، ومُعَرَّض. يحوله إلى كائن آخر، كائن أعرج، ويفتقر إلى الثقة بكيانه.

الرجل الذي يخسر ذراعه اليمنى، يصبح كائناً «أعسر»: أخرق، بطيء، وقليل الفاعلية. إنه يخسر جسده بمثابة الحليف الذي يعتمد عليه، جسده الذي يشكّل دفعة توجّهه. يصبح قاصراً، لا يصلح لشيء بالمعنى المجازي، إنه يتحول عموماً إلى نوع من «ذراع مسكورة». يصبح العالم نفسه مختلفاً، حيث كل شيء «محايد تماماً»: يفتقد سهولة الحركات، ويسر العادات الجسدية، وبداهة التنقّلات والإيماءات. حتى أن المشي، فاقداً للتوازن بسبب تعطل الذراع، يفتقر إلى الرشاقة المعهودة. كل جسده يبدو وكأنه أصبح غير قابل للاستعمال. هذه التجربة هي تجربة فقدان، والغربة عن الكيان. «وبمعزل

(1) المرجع نفسه، ص 14.

عن السائقين أو الذراعين اللتين تعرضتا للكسر أو إحداهما، بينما كنت ملقى على الأرض، حدث شيء غريب. لقد سُلِبَ مني شيء ما، وسُلِبَ مني بشكل مستمر⁽¹⁾. ما سُلِبَ منه هو جسده الذي يحمله ويتواطأ معه، إنه التعود على جسده: لم يعد هذا الجسد سوى بوصلة مختلة. يبدو جسده كما لو أنه يفلت منه مثل أرض تتشقق، أو مثل درب ينهار تحت وقع خطواته. ولكن في إفلات الكائن الأيمن فائق الألفة هذا، يظهر دور آخر على مقدّمة المشهد. يطوّر ميشو فضولاً فعلياً تجاه هذا الكائن الأعسر، فهو يستثمره بسرعة ويبدأ مباشرة بالكتابة بيده اليسرى حول ما تكشف له تجربة السقوط هذه: كائن آخر، في كيانه، أو على الأقل نمط آخر من الكينونة، أنا يطلق عليها تسمية «أنا شقيقة». ويتجلى له حضور طالما أهمله لسنوات طوال، وتركه دوماً في الظلّ. وهكذا تكشف الحوادث أطيافنا وذاتنا الافتراضية. تلك التي تبقى في الكواليس منتظرة سقوط الشخص المألوف كي تحلّ محله وتحتل الأولوية. «يسار أناي هذا، الذي لم يكن في الصدارة على مدى حياتي، والذي عاش في حالة انكفاء، هو الوحيد المتبقّي لي حالياً، ذلك الوديع، أصبحت أدور حوله، ولا أتوقف عن تأمله بدهشة، إنه أنا، وإنه شقيق أناي كذلك»⁽²⁾.

وكما يقول ميشو، فالحادث يصبح فرصة لاستثمار ذلك

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه، ص 17.

الجزء منا، والقيام «باستقصائه»⁽¹⁾. فماذا يعلمني كياني الأيسر عن ذاتي؟ بالإمكان تأويله بمثابة أحد أشكال الهشاشة الجسدية، أو بمثابة كائن آخر، مُبَخَّس، وأقل رشاقة، إلا أنه أيضاً، ومن خلال الانتباه الذي يتطلبه، كائن يتصرف بطريقة مغايرة، ويلاحظ العالم ويتعامل معه تبعاً لكيفيات أخرى، كائن يحمل نظرة مغايرة لكل ما كان يبدو مألوفاً جداً وبديهاً. يستحضرُ ميشو «شبه انعدام وجود» هذا الكائن الأيسر. ما هو وجود الحد الأدنى هذا، وماذا يعلمنا؟ نحن هنا بصدد أن نعرف من نحن «بشكل أو بآخر»، وعلى مختلف أوجه كيانا. يصبح هذا الحادث في النهاية نوعاً من التجريب للذات: «هذه الحالة التي أرسلها الحظ لي مصحوبة ببعض المضاعفات، أخذت أنظر فيها. وكأنني غطست فيها. ولم أبحث أبداً عن التخلص منها بسرعة»⁽²⁾. أتأمل ذاتي بنوع من الفضول في هذه الوضعية التي تمتحنني وتكشفني. فمن أنا حين يُهَجِّرني الحادث من وضعيتي المعتادة⁽³⁾؟

(1) المرجع نفسه: «تدبرت أمري مع ذراعي اليسرى، وبدأت، بشكل أو بآخر، منذ اليوم التالي، بالكتابة المترددة باليد اليسرى، وذلك كي لا يغيب عني الأثر الكامل لهذا الوجه الذي كان مجمّداً من الطبيعة الجسدية، التي تعين عليّ أن آخذها بالحسبان، كي لا أنساها، ولا أستنيها من استقصاءاتي المستقبلية».

(2) المرجع نفسه، ص 17.

(3) المرجع نفسه، ص 11: «السما والارض حافظتا على مكانهما، ولكن أنا لا أستطيع أن أسترّد مكاني».

فمن هو إذاً الكائن المتألم؟ الكائن المهجّر، والمنفي، والأبتر. معاناة الإصابة تُبدّل عادة الوجود، وتجعلني أفقد حالتي الطبيعية، كما تقطع هذا التواطؤ الصامت ما بين الجسد والروح. يتمّ اختلاس الجسد منا، وتكتشف الروح تبدّلها، بعد أن سُلِب منها ذلك الجزء الذي اختفى من الكيان، الذي تمّ اختلاسه من قبل المعاناة، التي يولّدها المرض أو تولّدها الإصابة. ويبدو كما لو أن الروح ذاتها قد تغيّبت، يقول ميشو. ومع ذلك كياني الأيسر هذا لديه ما يعلمني إياه عن ذاتي. أن نكون مهجّرين، يعني أن نكتشف ذواتنا بكيفية أخرى، وهذه الهشاشة ليست مجرد حالة قصور، وإنما هي تدلنا على حالات أخرى من الكينونة، وعلى أسلوب آخر من الوجود.

تسائل تجربة الألم المرضي ذلك الموقع الذي شغلناه من دون تساؤلات. هل نريد فعلاً أن نكون هناك؟ وهل هناك فقط هناك يمكننا أن نكون؟ يتمثّل الرهان في أن نتموضع فعلاً، بعد تجربة مرعبة جعلتنا نفقد توجّهنا. وإذا كان جسدي قد أصبح «خارج الاستعمال»، كما يقول ميشو، ففي أي إطار يتعين أن ندرجه من الآن فصاعداً؟ أي نبض يعمل فيه، وأي عالم يقوم هذا النبض بتحريكه، أو إعادة إحيائه؟ وإذا كانت العادة تشكّل أسلوب وجودنا، فبإمكانني إعطاء عادات جديدة لجسدي، وبإمكانني أن أستعمله بطريقة مغايرة، وأستكشف كياني الأيسر وأكتشف مهاراته. «أي أن أخلق ذاتي بذاتي»،

كما يذهب إليه تعبير برغسون الرائع الذي يتخذ معنى خاصاً في سياقٍ علاجي. لقد تغيّر جسدي من خلال تجربة معاناة الحادث، وأصبحتُ أعرف هشاشته وجوانب قوته في آن معاً، ويتوقف عليّ أنا أن أعطي معنى للعلاقة الجديدة بجسدي التي أُسبِغُها عليه. وبذلك قد يتكوّن لدي الانطباع، كما يقول ميشو، «بأنني استوعبت الأمر، وأنني لم أتألم عبثاً»⁽¹⁾. تحويل الحادث إلى تجربة يتعيّن التفكير فيها، أي تجربة تدعو إلى التفكير، يعني تحويل هذا الألم إلى تجربة مولّدة للمعنى. فكل من يعاني من ألم الإصابة أو المرض يأمل أن يعطي معنى، ومبرّراً لتجربة المعاناة الجسدية العبثية هذه. فما يمكن أن يُدخل السلوى على نفوسنا هو فعلاً فكرة كوننا نجرب من خلالها وجهاً آخر من وجوه هويتنا.

(1) المرجع نفسه، ص 10.

6

حالات الولادة والانفصال

«كيف يمكن أن نترك بعضنا عندما نكون غير قابلين للانفصال على غرار أم وابنتها؟»⁽¹⁾.

ليديا فليم

لا يخطر ببالنا مباشرة أن نربط الولادة، هذا «الحدث السعيد»، بالمضامين السلبية التي تحملها فكرة القطيعة. ومع ذلك فالولادة تمثلُ فعلاً أولى حالات القطيعة، وذلك من خلال التحولات العميقة التي تفترضها مسبقاً وتولدها. وهو بالطبع تحول جسد المرأة، الذي يتعرض إلى واحدة من التبدلات الأكثر أهمية الذي يمكن للنوع الحيواني أن يتحملها، وكذلك التبدلات النفسية، والعلاقة مع الذات. ومع قدوم الطفل، تتخلى الأم -والأب- عن إمكانية، وعن ترف التمكّن من البقاء جانباً، أي عن ترف الحرية الذاتية. ومن خلال إنجاب طفل، تصبح مسؤولية عنه. وتتخلى، لفترة من

(1) Lydia Flem, *Comment je me suis séparée de ma fille et de mon quasi-fils*, Seuil, 2009, p. 71.

الزمن على الأقل، عن إمكانية أن تنعزل وتنفصل. إنها تواكب وتقبل أن تتراجع إلى الموقع الثاني بعد الطفل الذي يستقطب الأولوية، كما يستحوذ على الوقت وعلى حريات الوالدين⁽¹⁾.

وإذا كان ينظر إليه غالباً بمثابة بداية، فإن ميلاد طفل هو أيضاً بالنسبة إلى الأم، وبالنسبة إلى كل من الطفل والزوجين نوع من القطيعة العميقة التي تولّد الاختلال. إذ إنه يمكن أن يغير العلاقات العائلية والعاطفية الأخرى ويعيد تموضعها. وهكذا فإن نصبح آباء أو أجداداً، وأن لا نبقى ذلك الطفل الوحيد، أو أن نرى أختنا أو أخانا تصبح أمّاً أو يصبح أباً يشكّل ردّاً على الميلاد الذي يقلب أنماط العلاقة، ويجبر أحياناً على اختراع أخرى. من الهامّ إذاً أن ننظر بشكلٍ جدّي إلى قوته التي تربك نمط الوجود السابق على هذا الميلاد.

تغيّر الولادة مواقع العلاقات، وتعيد تحديد حدود الهوية ونطاقها. يتوقف على الأم المقبلة في المقام الأول أن تهَيئ المكان، وأن تخلق في كيائها، وفي جسدها حيّزاً يستقبل الطفل ويرعاه ويغذّيه ويحميه⁽²⁾. إنها تتخلى رمزياً عن

(1) انظر المرجع نفسه، ص 65: «ذاك الوالدان اللذان يحلمان بابنهما المقبل، هل يدريان أنهما لن يمتّان إلى ذاتهما ثانية؟ وأن نظام حياتهما سوف يُقلب رأساً على عقب؟».

(2) انظر المرجع نفسه: «يعيد الجنين تشكيل جسد أمه، إذ إنها تتحضّر لذلك. تسعد الأم، أو تقلق حين ترى منحني بطنها وشكل ثدييها ينتفخان من الحياة التي تحملها. إنها تعرف أنها كي تضع كائناً جديداً يتعيّن عليها أن تستقبله في جسدها، ولكنها لا تقدّر كل التغيرات التي تنتظرها».

الصدارة كي تعطي الأولوية لراحة الطفل ورفاهه قبل رفاها ورغباتها. وهكذا تصبح بالتالي، ولو كره كانط، ليست غاية بحد ذاتها، وإنما هي تصبح أيضاً وسيلة لحياة أخرى غير حياتها هي. لأنها هي الكائن الذي من خلالها يمكن لولادة ما أن تحدث أم لا. فمنذ الحمل، تُلقى على المرأة مسؤوليات حيوية. إذ عليها أن تحمل بالطفل وتضعه إلى الدنيا في أفضل الظروف الممكنة. إذ يتراجع ألمها، وتعبها، وقلقها، ومعاناتها، وحزنها إلى الموقع الثاني. يجسد الوضع حركة وضع جسدها في المقام الثاني، والذي يمكن أن يهدّد حياة الأم ذاتها. في هذه التجربة الاستثنائية، يتمدد الجسد بشكل مذهل، مفقداً حدوده الذاتية، وامتداداً خارج ذاته، في نوع من الفيض. جسد الأم التي تضع ليس هنا سوى بمثابة الشرط لحدث آخر يُرجع إلى الوراثة البعد الصدمي الذي تمثله هذه اللحظة القوية من تغيير جذري لأنا الأم⁽¹⁾. ففي هذا القرب من الموت الرمزي، وهذه التضحية بالذات، تتحمل الأم خروج الطفل وانتزاعه من جسدها، حيث ينفصل عنها ويصبح كائناً غريباً. فالولادة هي تلاقي غريبين عاشا لعدة شهور في تلاصق تام، تلاصق جسدي وكذلك نفسي. ولذلك نفهم كيف أن هذا الميلاد يمكن أن يعاش بمثابة انتزاع عنيف [ظاهرة اكتئاب ما بعد الولادة]. تعاش هذه الحركة المزدوجة من

(1) انظر Chantal Birman, *Au monde. Ce qu'accoucher veut dire*,

Seuil, coll. «Points», 2009.

الانتزاع/ التعلّق، والانفصال والارتباط، أي حماية الطفل، حول الميلاد وتوابعه. وفي مقابل قوة الانفصال تقوم قوة التلاصق الجسدي ما بين الأم والطفل. يوجد في هذا التقارب الأقصى نوع من الأثر الدامغ والامتلاك المتبادل، ومن دون حدود أحياناً. يقارن كريستيان بوبان هذا الأثر الدامغ الناجم عن هذا الرباط البدائي، وهذه العاطفة الأولية بنوع من الحريق: «هذه المرأة مأخوذة كلياً من قبل طفلها، المميّز بحب وافر، ومن دون تحفّظ. هي محترقة بالحب إلى درجة أنها مُنَوَّرَةٌ»⁽¹⁾.

ويمكن في جميع الأحوال الكلام عن «احتلال» الأم من قبل الطفل، والذي هو أبعد ما يكون عن الانتهاء عند الميلاد، والذي يبدو أنه لن يزول فعلياً أبداً. ومع ذلك سوف يتعيّن على الأم تحمّل الانفصال والتهيئة له، بغية مساعدة طفلها على الولادة مرة ثانية، أي أن يخرج إلى العالم ويسترد ذاته. أي يتعيّن عليها أن تجابه الفراغ، ونقص فقدان وقلقه⁽²⁾. تذكّرنا ليديا فليم أن كلمتي «والدان» (Parents) و«انفصال» (Séparation) مشتقان من المصدر نفسه بالفرنسية: «ربط، وفكّ

(1) Christian Bobin, *La part manquante*, Gallimard, coll. «Folio», 1994, p. 17.

(2) Lydia Flem, *Comment je me suis séparée de ma fille et de* انظر *mon quasi-fils*, op. cit., pp. 70-71 : «الابتعاد عن كائن عزيز علينا لمدة من الزمن تطول أو تقصر يترك صدى الخسارة والفقدان، والخوف من أن لا نعود نلتقي ثانية يوماً ما».

الارتباط. خلق روابط: إعطاء الحياة، وإعطاء الحرية. أنا لم أقارب أبداً كلمتي «والدان» وكلمة «انفصال» مع أنهما من المصدر ذاته لغوياً. فكلمة «انفصال» تتضمن كلمة «والدان»⁽¹⁾.
فأن نكون والدين، يعني إعداد الطفل للدخول إلى العالم وجعل الانفصال ممكناً، مهما بلغ الألم المتولد عن ذلك⁽²⁾.
إنه مجابهة قطيعة مزدوجة: الانفصال بالولادة، والانفصال المقبل عن الأسرة، عندما يترك الطفل العش الأسري.

ولكن لنعد إلى الولادة. فمن خلال التفكير بالولادة بمثابة انفصال عنيف، وانتزاع، ترسم المحللة النفسية آن دوفورمانتيل أنموذجاً يتيح لنا التفكير بحالات قطيعة أخرى في الوجود. إذ تعيد كل قطيعة لعب هذا الانتزاع الأول بطريقة ما. فمن خلال التفكير بظروف الولادة، التي قد نميل إلى وصفها بأنها «جيدة بما فيه الكفاية»، وذلك من خلال استعارة هذا التوصيف من طبيب الأطفال دونالد وينيكوت، سيصبح بإمكاننا استخلاص

(1) المرجع نفسه، «Sé/paration»، ص 69. انظر كذلك فيما بعد: «والدان» (Parents) المشتقة من Parere اللاتينية، والتي تعني إنجاب طفل، وفعل الإنجاب. إذ تشتق أصلها من جذر غربي يعني العطاء.

(2) انظر المرجع نفسه، ص 84: «إنهم يحملون جروحنا، وأحلامنا، رغماً عنهم. ويتعين عليهم التخلص منها -من خلال تبديلها- كي يتمكنوا من أن يتنفسوا برئيتهم، وأن يمشوا مستنديين على سيقانهم، وأن يحملوا أفكارهم الخاصة. قد يترددون ويتعثرون، ويرغبون في الآن عينه في تلبية آمياتنا السرية. ولكن أن يحبونا يعني، في الآن عينه، أن يتركونا».

بعض العناصر التي تحوّل هذا الانتزاع إلى «ولادة» الذات أو «انبعاثها من جديد».

كل ولادة أو انبعاث جديد يتعيّن أن يُتابع بعناية كونهما في الأساس قطيعة. التفكير بالقطيعة، هو كذلك التفكير بالضيافة التي تستقبل الفردية في مرحلة عبور، ما بين المزدوج والفردى (في حالة الولادة)، أو ما بين الزائف والحقيقي (في حالة الانبعاث من جديد)، وأن يقدّم لها حيزاً من الأمان يمكنها من تجلي كيائها الهش، أو توكيد هويتها الغضة. إلا أنه بالإمكان كذلك القول إن كل قطيعة يتعيّن، كي تصبح قابلة للاحتمال، أن تنتهي بعملية خلق. أي يتعيّن أن تتيح للذاتية أن تظهر وأن تتوكّد، وأن تخلق ذاتها، من دون عقبات، أو سطوة. ما يتأكد من خلال الولادة والانبعاث، هو فكرة الانفصال المقبول طوعاً، والذي يعزّز كيان الطفل.

تستعمل آن دوفورمانتيل في كتابها عدة مرات الصيغة القائلة «الولادة وحدها لا تكفي». فما هو هذا الذي ينقص في الولادة؟ كيف نتابعها ونعتني بها، وكيف نسمح لهذا المولود الجديد أن يكبر ويحتلّ مكانه في الدنيا؟ لا بدّ من التوقف عند الاهتمام، وعند نوعية الحضور، وكذلك الصوت ونغمته، والموسيقى، والملامسة المرحّبة، والمساندة التي تتيح الولادة والانطلاق في الحياة. تدرج الولادة ذاتها ضمن تاريخ من الرغبات بالطفل والتصور السابق على وجوده البيولوجي. تكون كل ولادة مغلفة بشرنقة من الإسقاطات

السعيدة، والتوجُّسات القلقة، والكلمات والأنغام الشجية⁽¹⁾.
لقد نسينا إلى أي حدّ تمثل الولادة للرضيع معاناة فيزيقية،
معاناة الخروج من رحم الأم، ومعاناة أول تنفُّس، وعدوانية
العالم الخارجي من برد وضجيج، وضوء يُغشي البصر⁽²⁾.
وحتى حين تتم الولادة بسهولة، فإنها تشكّل عبوراً يتصف
بالخشونة من كيس الجنين الهادئ والمطمئن والوحدة مع جسد
الأم إلى الوحدة المقلقة، التي تُعاش بمثابة منفى. يتعرّض
المولود حديثاً إلى العري والانكشاف، ويلقى في هشاشة كيانه
البالغة، بعد أن كان في رحم أمه متّحداً معها، ومحاطاً
بالغشاء الحامي من الصدمات. يحتاج عندها إلى شرنقة حامية
جديدة من العالم الخشن وحامل الأخطار. تمثّل العناية به
عندها الاعتراف به والقيام على شؤونه في حالة ضعفه هذه.
ويتعيّن تمديد حالة الطمأنينة في الرحم، من خلال رقّة
الملامسة وحرارة التلامس الجسدي، والكلمات الرقيقة،
والمناغاة، وتوفير الإحساس بالحضور الحاني الدائم، والقيام

(1) انظر Anne Dufourmantelle, *Éloge du risque*, Payot & Rivages, 2014، «فلتتوقف معاناتنا...»، ص 126: «... كوننا خرجنا إلى العالم لأن شخصاً آخر حمل بنا، وأطلق علينا اسمنا، وناغانا، وتمنى، وتوجس، وغنى، وأنجبنا، هذا ما نطلق عليه عبارة «أن نولد»».

(2) المرجع نفسه، «Solitudes»، ص 142: «لقد نسينا أننا انْتزِعنا يوماً من الحالة الجنينية، من هذه الذاكرة الرحمية التي حملت بنا. مولدون من اثنين من خلال الانقسام الخليوي. هل نتعافى أبداً من منفى الولادة هذا؟ وهل سوف نتكلم عنه؟».

باحتياجاته. يتعيّن استبدال الجسد الرحمي، بآخر وهمي، مكوّن من الأصوات الرقيقة، والملامسة الجسدية والاحتضان، والمناغاة التي توفّر له الطمأنينة القاعدية، وتتيح له في الآن عينه تلمّس حدود جسده الخاص تدريجياً⁽¹⁾. يلعب جيب الحماية المصطنع هذا للمولود الجديد دوراً جوهرياً على الصعيد النفسي، إذ يكون لحمه الثقة بالراشد، ويوفّر الشعور بإمكانية الاعتماد عليه. تشهد الرعاية الطبية التي توفّر للأطفال الخُدْج على الوعي بضرورة توفير هذه البيئة الدافئة، الحامية والباعثة على الطمأنينة. وليس من المدهش في شيء، أن تكون بعض ممارسات التلامس الجلدي بين الأم والطفل، مستوحاة من الحركات التقليدية (للنساء الهنود الحمر الأمريكيات) اللواتي يحملن رضيعهن بصدر عارٍ كي يمررن له حرارة جسدهنّ ويزدن بذلك فرصته في البقاء.

لماذا هذه الرعاية صعبة إلى هذا الحدّ؟ ولماذا تفشل أحياناً؟ لأن ركاكة الطفل، على غرار ركاكة المسنّ، توقظ في

(1) Anne Dufourmantelle, *Puissance de la douceur*, Payot & Rivages, 2013, «Prendre soin», p. 25:

«تأتي الرقة مع إمكانية الحياة، مع الغلاف الرحمي الذي يمرّر الانفعالات، والأصوات والأفكار، مع السائل الأمني، مع تلمّس الجلد، مع العينين المغمضتين اللتين لا تريان بعد، ومع التنفس المحمي من الهواء الخارجي. ومن دون هذه الرقة الأصلية، قد لا نعيش كي نولد. إنها كامنة بلا شك في كل من خلايانا، حتى قبل ذراع الأم الحانية وهددهتها. عالم الطفولة يديم هذه العناية». انظر كذلك كلمات آن دوفورمانتيل حول الأطفال الخُدْج، المرجع نفسه، ص 26.

النفس ركاكتنا الذاتية. ولأن هشاشة الآخر تجعل الأمر صعباً عليّ، وتحملني مسؤولية قد تبدو لي ثقيلة جداً، في تلك اللحظة من حياتي. إذ يبدو أن وجوده يتوقف كلياً على صواب حركاتي وردود فعلي، وعلى قوة انتباهي له واهتمامي به. وبهذا المعنى، تصدر هذه الحياة الهشة حضوري وتفانيّ كله، بنوع من المتطلبات الفائقة. وتضعني بالتالي أمام إمكانية أن لا أكون جديرة بهذه المهمة. كما يمكنها أن تكشف أخطائي. فاستقبال كائن ضعيف إلى هذا الحدّ يشكل خطراً على الدوام، في حين أننا قد نعتقد بسذاجة أنها غاية في البساطة. فهشاشة الآخر تثير هشاشتي الذاتية، وتجبرني، وبطريقة فظة أحياناً، على مواجهة حالات ترنّحي⁽¹⁾، وعدم صلابتي. تفترضُ العناية بالآخر في الواقع وبشكل مسبق «أن أتعرّضَ لمعاناة الآخر، وحزنه، وألمه، والعمل على استيعاب هذا الألم بتحويله إلى موضع آخر»⁽²⁾.

وهكذا فالولادة هي في نهاية المطاف عملية سارية، وليست مجرد حدث، إنها انفصال تدريجي، مصحوبة بالرعاية التي تقلبُ الهشاشة إلى قوة. وبهذا المعنى، فهي عبارة عن خلق مجال طمأنينة داخلية وتعميمه، كما طرحه وينيكوت. عملية الإنجاب هي مصاحبة مستمرة للطفل في إبراز قدرته على

(1) المرجع نفسه: «توجّس ركاكة الآخر لا يمكن أن يمرّ بالنسبة إلى الذات، من دون الإحساس بهشاشتها الشخصية».

(2) المرجع نفسه.

خلق هذا المجال النفسي الحميم، ولكي تخلق لديه مجال ذاتي داخلي، كما فعلت الأم خلال الاستعداد لاستقباله. عاطفة الوالدين واهتمامهما يلعبان عندها دور تنمية القدرة لدى الطفل على أن يستقلّ في العناية بذاته، وعلى أن يخلق عالمه بنفسه. إذ يمدّ الحب الطفل بما يكفي من الثقة كي يُقبل على الانفصال عن التعلّق التبعية ويبني مجالاً حيوياً داخلياً لذاته.

لا يكفي مجرد الميلاد إذاً كي ينفصل الطفل عن أمه ويتمكّن من الوجود فردياً. فبناء الذاتية لا بدّ أن يمرّ من خلال فعل خلاق، يتمثّل بخلق مجال ذاتي داخلي خاص. وبالكيفية ذاتها، فالميلاد ثانية بعد المرور بتجربة مؤلمة يتطلّب التآلف مع الوحدة، ومجابهة الخوف البدائي المتمثّل بخطر التعرض للترك والهجر.

وكما أن الحب يُولّد عند حديث الولادة الشروط الضرورية للربوغة في الحياة، يتعين أحياناً إعادة خلق خيار الحياة عند الراشد الغارق في اليأس، والمعاناة النفسية، التي تصل أحياناً حدّ التخلي عن الربوغة في الحياة. يتعين مساعدته على مجابهة «خوفه العاري من أن يترك وحيداً بشكل دائم»⁽¹⁾. وبهذا المعنى، فإن الإنجاب، كما العناية بشخص تعرّض لقطيعة غرامية، لا يبدو أنهما مهمّتان مختلفتان

Anne Dufourmantelle, *En cas d'amour*, Payot & Rivages, 2013, (1) p. 58.

كثيراً⁽¹⁾. يتعيّن أن نوفر بسخاء لهؤلاء الذين قسى عليهم الدهر الحنان والثقة اللذين نعرف إلى أي مدى هما ضروريان كي ينهضوا ويبنوا كياناً من جديد. ومن الممكن أن البعض معرّضون أكثر لقسوة العالم لأنهم افتقدوا هذه الحماية الأولية في طفولتهم. يكفي تدليلاً على ذلك الاستماع إلى شارل جوليه يتحدث وقد تجاوز الثمانين من العمر بتأثر شديد عن صدمة وفاة أمه بعد ولادته بفترة وجيزة. يترك هذا الافتقاد للغلاف العاطفي الأول الذات مكشوفة⁽²⁾. وليس من المستغرب كذلك أن نكتشف مُعاشاً مشابهاً في طفولة وينيكوت نفسه الذي ألحّ بإصرار على وظيفة حمل الطفل واحتضانه بمثابة وسيلة لمساندته جسدياً، وبحيث يشعر بالطمأنينة، ولكن أيضاً بمثابة مساندة نفسية. لقد عانى وينيكوت طفلاً الكثير من موقف أمه المكتئبة التي لم تكن تحتضنه وترعاه، ما ولّد لديه الاضطراب والقلق.

يساعد التفكير حول كيفية الولادة على استخلاص تفسير لاستعادة الشخص لتوازنه النفسي بعد تعرّضه لعلاقة مدمّرة أو لتجربة عنيفة. كما يمكن أن نعرف من خلال ذلك كيفية تجاوز الكائن المجروح كيانياً لمحنته. وإذا كانت القطيعة أحياناً هي

Ibid., p. 59.

(1)

(2) انظر Charles Juliet, Interviewé sur France Culture dans *Le Temps des écrivains*, le 10 août 2018: <https://www.franceculture.fr/emissions/le-temps-des-ecrivains/peut-etre-ne-peut-vraiment-imaginer-que-ce-que-lon-a-deja-vecu-soi-charles-juliet>

الشرط اللازم لولادة ثانية (التحرُّر من حياة خانقة، وضع حدّ لحب قد انطفأ، تجاوز صدمة، استعادة حيوية الجسد بعد عدوان أو مرض)، فإنها لا يمكن أن تحدث من دون إحاطة الشخص بالحماية والعاطفة والتفهم بما يساعده على تجاوز جرح الصدمة⁽¹⁾. بهذا وحده يمكن شفاء الجروح الكيانية، والولادة من جديد.

(1) Anne Dufourmantelle, *Puissance de la douceur*, op. cit., «Trauma et création», p. 119:

«المقاربة صدمة ما، وحتى شفائها، يتعيّن الذهاب إلى حيث أصيب الجسد. كما يتعيّن خياطة جلد بديل محل حروق الصدمة. صناعة غلافٍ واقٍ على الأقل والذي من دونه لا يمكن قيام أي خلاص، وإلا سوف تطارد الصدمة حياة الفرد. الرقة والحنان يشكّلان أحد شروط النهوض ثانية واستعادة المسيرة».

7

القطيعة مع الأسرة

«اطور كليا ولمرة واحدة صفحة كل من تحب،
وكل من يعنون لك، ثم انطلق من جديد»⁽¹⁾.
أنطوان ووترز

في نصّ لاذع بعنوان فُكّر في الحصى تحت خطواتك،
ومن خلال أسلوب كتابة متوتر، يضع الروائي أنطوان ووترز
مبادئ دليل الصمود للعنف الأسري: «قواعد الصمود أمام
العنف الأسري». في هذه القصة حيث تنهمر الضربات على
الأطفال، ينفجر الألم بشكل بعدي. وهو لا ينفجر في سوء
المعاملة اليومية، التي تتحول إلى نمط فريد من العلاقة مع
الأب، وإنما في غياب هذا الأب. إذ يظهر واقع المعاناة التي
يتعرض لها الطفل أحياناً على شكل انفجار في الفارق،
والمقاربة مع أنماط أخرى من الحياة. فحين يعهد بالطفل إلى
عمه كي يتكفّله، سوف يعي مقدار العنف المفروض.

Antoine Wauters, *Pense aux pierres sous tes pas*, op. cit., p. 70. (1)

حين أصبحت عند العم زيو، كأنني أعدت قراءة تاريخ
 حالتي بنظرة صائبة. وشعرت برغبة في أن انفجر غضباً.
 نعم، ولأول مرة اكتشفت أن الحياة كان بإمكانها أن تكون
 جميلة، وغنية، ورقيقة وقاسية في آن معاً. وأنه حتى تلك
 الفترة، قد أمضيت عمري وكأنني محجوز تحت جرس من
 زجاج⁽¹⁾.

حين تصبح الحياة أكثر رقة، يبدو الماضي المظلم غير
 قابل للاحتمال وينفجر في الوجه. فمن خلال التماس مع كل
 ما هو جميل، ولطيف، وحنّ، ومحّب، تكشف حياتنا عن
 وجهها البشع، وعن عنفها. وما كنا نشكُّ بوجوده بطريقة
 بدائية، في تقلُّصات أحشائنا، يتجلّى بوضوح كامل: تلك
 الحياة السابقة غير قابلة لأن تعاش، وما كان يجب أن تعاش.
 وحين نكتشف كيف يعيش الآخرون، ينتابنا الذعر من
 نمط عيشنا، ونشعر بالخجل من هكذا حياة. إنه الخجل من
 فظاظتها، وعنفها، وبشاعتها، وغبائها. تبدو لنا تلك الحياة
 السابقة مذ ذاك بمثابة سجن، أو فخّ يتعيّن الهروب منه، قبل
 أن نضيع فيه. كيف يمكن لنا أن نتجاوز المحنة؟ يمكننا ذلك
 من خلال القطيعة مع الحب المدمّر، ومن خلال هجر
 الارتباط، وكذلك من خلال القضاء على ما كناه لهم، وما

(1) المرجع نفسه.

كانوه لنا: «اطوِ كلياً ولمرة واحدة صفحة كل من تحب، وكل من يعنون لك. ثم انطلق من جديد»⁽¹⁾.

هؤلاء الأهل عاجزون، على كل حال، عن أن يحبوا دون أن يدمروا⁽²⁾. وحين يتغلغل العنف إلى هذا الحد في حركات الراشد، الهروب فقط هو ما يمكن أن ينقذنا. فالأب هو أول ضحايا عنفه، الذي يفرضه كذلك على نفسه. تذكر حبكة هذه القصة حبكة التراجيديات الكبرى. إذ لا يمكننا الخلاص إلا بالقطع مع الأهل سيئي المعاملة، الجلّادين والضحايا في آن معاً. يجب قتل الأب [بمعنى رمزي، أي إلغاء حضوره من وجودنا وتجاوزه]. إذ بهذا الثمن وحده يمكن أن ننطلق من جديد.

«قواعد الصمود أمام العنف الأسري أو إجراءات التَحَصُّن من المعاناة» تشكّل فعلاً طريقة في طيّ الصفحة [الإلغاء الرمزي]. تحويل الأهل إلى غرباء، إلغاء وجودهم، وإسكات كل أصوات العاطفة، والقضاء على الحب الذي يقاوم. تبني موقف غير مبالٍ.

1. فُكّر بأبيك وكأنه غريب. وقلْ لنفسك إنه سيكون آخر من يأتي لمساعدتك عندما يكاد قلبك أن ينفطر.

(1) المرجع نفسه، ص 91.

(2) انظر المرجع نفسه، ص 111: «كيف يحدث أن تمر أكثر الأشياء جمالاً دون أن نراها؟ وكيف يحدث أن لا نتمكن من أن نكون الأب الذي نود أن نكونه؟».

2. فُكّر بأَمك وكأنها ماتت. ادفنها. وخلال سيرك ليلاً اضرب بأقدامك كي لا تسمع أنينها يصعد إليك.
3. قلْ لنفسك أن رباط الدم لا يعني شيئاً. [...]
4. تجنّب لحظات الفرح معهما. إذ سوف يعودان لاحقاً كي يفطران قلبك. [...]
5. تعلّم أن تسكّت أصواتهما في قلبك. إذ ليس هما أبداً مَنْ يناديانك، وإنما أنت أيها البائس المسكين هو من يحاكي أصواتهما. من تعطّشك. من خوفك. من شوقك⁽¹⁾.

تشكّل هذه الأسطر الرهيبة، التي كُتبت بحالة الغضب واليأس من فقدان الحب الوالدي، دليلَ البقاء⁽²⁾.

يتعيّن عليه بالطبع أن ينقذ حياته، أن يهرب، كي ينطلق ثانية في مكان آخر، وأن يتحرّر من الأساطير العائلية ويخلص ذاته من وحشية بعض الارتباطات، ويفلت من التملُّك الافتراضي. إذ لم يتبقّ سوى القطيعة الجذرية والتخلّي، هما ما يسمح بالبقاء والخلاص؛ وأنه يتعين التحرر من الولاء الذي يسمّم الوجود، والارتباطات السامة، أو بصيغة أبسط من ذلك

(1) المرجع نفسه: «قواعد الصمود أمام العنف الأسري»، ص 67.

(2) المرجع نفسه: «لماذا لم تكونا موجودين أبداً في حياتي؟ وفي فورة غضب جامح، أخذت قصاصة من ورق وسجّلت عليها هذه الكلمات، بسرعة ومن دون تفكير، لأن حياتي كانت تتوقف عليها. حياتي البائسة كانت تتوقف عليها فعلاً».

يتعيّن الاعتراف بواقع خلاف مفرط لا يسمح بتفاهم، أو بتفهّم حقيقي. كما ننفصل كذلك أحياناً كي يعيش كل منا على طريقته حدثاً يصيبنا في الصميم. هكذا تؤكد الروائية والفيلسوفة ماريون مولر-كولار في عملها بعنوان يوم نهر دورانس أن هناك ارتباطات يتعيّن فصم عراها كي يتمكن كل طرف من العثور على جوابه الخاص على الحدث الذي يزعزع كيانه بعمق. «على الرغم من الأساطير الأمومية التي تؤسّس لحياتنا الأسرية، يحدث أحياناً بين أم وابنتها تعرّضهما لقطع كل الخيوط، وبحيث تجري كل منهما عندها لإنقاذ جلدتها»⁽¹⁾.

ليس من البراءة أن نتكلم هنا عن الجلد. يتعيّن بالطبع إنقاذ جلدنا، ولكن يتعيّن كذلك الاعتراف بالفارق في إدراك الأمور، والفارق في المُعاش، وكذلك في الهويات الذاتية. ذلك أن العنف يقوم في الخلط بين الأجساد، وفي عدم تمايز حدود كل طرف، والذي يحتمل أن يكمن في قلب العلاقة الأمومية ذاتها. ذلك أنه حين يختلط جلد كل من الأم والطفل، يتعرض هذا الأخير للاختناق [العلاقة الذوبانية بين الأم والطفل]. يتعيّن عندها التحرر من الوفاء المطلق للوالدين، وهو مع ذلك وفاء يقاوم أكبر أشكال العنف⁽²⁾.

Marion Muller-Colard, *Le Jour où la Durance*, Gallimard, coll. (1) «Sygne», 2018, p. 79.

Anne Dufourmantelle, *La Sauvagerie maternelle*, Rivages, 2016, (2) = p. 147:

يجب التخلّص من الحب البربري. حللت آن دوفورمانتيل في عملها بعنوان الوحشية الأمومية، ومن دون أي تحفظ، مفارقة الرعاية الأمومية ذات الطابع المدمّر. تلك التي تحبّني تدمّرني، بدأب. جلدها يغتصب جلدي لدرجة أنه يخنقني: «الافتراس الاكتسابي، هو نتاج العلاقة التملكية الوحشية العاملة بصبر بطيء»⁽¹⁾.

يجعلُ مني الرباط العائلي «رهينة» في بعض الأحيان، فيحرمني من حياة نفسية خاصة بي⁽²⁾. من الضروري عندها أن ننفصل كي نولد من جديد لذواتنا ونحدث القطيعة مع ما نتعرّض له⁽³⁾، وهو الجواب الحيوي على استحواذ الأم على ابنتها. تترك الوحشية الأمومية على جسد البنات الصغار وصمات حضور افتراسي في الحالات التي درستها آن دوفورمانتيل. فالجسد الذي تعرّض للهزال ينبئُ «بالوليمة الافتراسية» التي تنخرط فيها الأم المفترسة نفسياً، وعندها يتعيّن على البنت أن «تتقيأ هذا الافتراس النفسي من الأم،

= «هناك ذلك الشيء الغريب في الطبيعة الإنسانية والمتمثل بالإخلاص المطلق للوالدين، لأولئك الذين ربّونا، وحتى عندما أعطونا الحب بهذا الشكل القاسي والغريب المسمى الأذى».

- (1) المرجع نفسه، ص 132-133.
- (2) انظر المرجع نفسه، ص 174: الأطفال «رهائن مزيج الجلود ذاك الذي يخطفهم».
- (3) المرجع نفسه، ص 133: «إنه نفور عميق يتعيّن القيام به، وهو نفور على المستوى الأكثر جذرية، الذي يتعلق باليأس حتى من الحياة».

وتميت هذه العلاقة معها، كي تولد من جديد: أي تقيؤ تلك الأم التي تدمج بنتها في كيائها. وتطردها من ذاتها، وتختار بأن «تولد من جديد كي تسترد جسداً يكون [لها هي]»⁽¹⁾. وكأنها لم تسكن حتى الآن جسدها الذاتي، ولم تكن لها حياتها الخاصة. فطردها الأم نفسياً من عالمها هو عبارة عن ميلاد نفسي جديد، وصياغة مجال حميم للذات لم يكن موجوداً حتى تلك اللحظة. ويتعين من أجل ذلك تحمُّل مسؤولية القطيعة، «قطيعة حقيقية يتولّد عنها أخيراً شعور حقيقي بالحياة»، أي الشعور بالوجود على شكل أنا ذاتية وليس وجوداً من خلال الأم. فاستعادة امتلاك الذات والجسد تمرُّ من خلال انفصام يستأصل هيمنة حضور الأم بشكل حيوي: «إذ تنخرط وحشية الأم في حالة من عدم التمايز مع البنت ما يؤدي إلى ذوبان الكيانين في كيان واحد، هو كيان الأم. ولا تكون هذه القطيعة ممكنة إلا إذا حُكِمَ على هذه العلاقة الدمجية مع الأم بالموت»⁽²⁾.

نحن هنا بصدد التضحية بالأم، وقطع الرباط معها كي نعطي ذاتنا «مجالاً حميمياً»: وذلك عندما يستنزفنا هذا الرباط أكثر ممّا يغذيها، عندها يصبح من الضروري الاستغناء عنه، مهما تطلّب تدميره من عنف. في الحالات المرضية المبيّنة أعلاه، نحن بصدد حياة أو موت، وطوارئ علاجية، إذ يجب

(1) المرجع نفسه، ص 134.

(2) المرجع نفسه، ص 117.

وضع حدّ لمنطق التضحية بالكيان الذاتي، ومنطق التدمير الذاتي: «تحمل هؤلاء البنات أمهنّ على أذرعهنّ كي يبقينها على قيد الحياة [...] ويعشن في حالة حرب دائمة مع ذواتهنّ تجعلهنّ عاجزات عن توفير مجال ذاتي حميم لأنفسهنّ»⁽¹⁾.

وللمفارقة، فالكارثة هي ما يساعد هؤلاء المرضى أحياناً على الخروج من حياتهنّ المستلبة. ففي حالة سارة، تمثّل الأمر في حمل غير مرغوب فيه، تلاه إجهاض، هو ما فجّر قرار القطيعة مع أمها. يتيح هذا الحمل الذي انتهى بالإجهاض، العودة اللاإرادية إلى الجسد الذاتي، وبروز البُعد الحميمي من الكيان، ما يسمح بولادة ثانية حقيقية إلى حدّ «التعبير الرمزي عن ولادة سارة هي ذاتها»⁽²⁾.

كما يحدث كذلك أن تتمّ هذه القطيعة من تلقاء ذاتها، مدفوعة بحدث مفجع يؤدّي العنف النفسي المتولد عنه إلى نوع من ردّ الفعل الحيوي التلقائي. نقطة القطيعة هذه والتي لا عودة عنها، هي ما يصفه بوضوح ليونيل دوروا في عمله ذي منحى السيرة الذاتية، بعنوان الأسى. إذ تكون حالات القطيعة صامتة وداخلية، أحياناً. إلا أنها لا تقلّ جذرية وقطعية بحال عمّا سواها.

Ead., *La Sauvagerie maternelle*, op. cit., «Vomir, mourir, (1) naître», p. 132.

(2) المرجع نفسه، ص 126.

يمكن وصف نقطة القطيعة بأنها تلك اللحظة التي ينكسر فيها شيء داخلنا. شيء ما ينهار. وتنطفئ الطاقة الحيوية التي كانت تحافظ على العلاقة. يحدث الأمر بصمت، وإنما مع إحساس بيّن بالبداهة بحيث لا يدع مجالاً ممكناً للشك. وبالطبع يحاول التفكير تقديم روايات تطمئن وتموّه هذه الحقيقة، إلّا أننا نعرف، في دخيلة نفوسنا، أن هذا الحب ينهار، في هذه اللحظة، مع هذه الجملة أو الحركة أو النظرة، أو في غيابها أحياناً، في حالة من غياب الحد الأدنى من التقدير. تمثل نقطة القطيعة تلك اللحظة التي نتخلى فيها عن ارتباط ما، فنفكّه أو نقطعه. تلك هي اللحظة التي نتوقّف فيها عن الثقة بشخص ما، أو انتظار أي شيء منه. إذ تستنزف قدرتنا على الثقة به بمقدار تراكم خيبات الأمل، والكذب، والعنف، أو حالات الخيانة. أو هي تنهار فجأة على غرار جرف كلسي، أمام عيوننا التي لا تصدّق ما ترى. تلك هي لحظة فقدان، تلك اللحظة الغريبة التي «نفقد» فيها شخصاً ما مع أنه ما زال حياً. هذا ما يشعر به ويليام، راوي العمل بعنوان الأسى:

كان ذلك صباح اليوم التالي، حيث وجدت أمي في المطبخ، حين حدثت قطيعتي معها. كانت تدير ظهرها، ولا أعرف ماذا كانت تعدّ لنا من طعام، ولكن بما أنني لم أعد أجروّ على توجيه الكلام إليها، انتظرت كي تستدير نحوي [...] كي تقول شيئاً، أو حتى مجرد أن تنظر إليّ،

ممّا كان يمكن أن يتيح ربط الصلة بيننا . إلا أنها لم تستدر بل كانت تتجاهلنا كلياً ، ولكن كنت أرى جيّداً أنها لا تعاني من أي إصابة ، وأن كل أعضائها تعملُ بشكل طبيعي ، وهكذا أخذَ يستغرق ذهني في أن كل ذلك كان في الواقع مجرد تمثيل . وأن هذا المشهد الذي كسرَ فؤادي بكلّ معنى الكلمة (أنا وأخواتي الأصغر سناً ، كما أعتقد) ، لم يعدْ كونه بالنسبة إليها مجرد حيلة كي تدفع توتو إلى أن يجد لها شقة في بولفار سوشيه⁽¹⁾ .

بالنسبة إلى ويليام ، شكّلتُ هذه النوبة العصبية الجديدة التي فرضتها الأم على أولادها ، إثر حريق في المنزل ، حيث تظاهرت بالجنون ، المشاحنة العائلية التي فاض بها الكيل . حدث عندها جفاء حميم في نفسه . فهذه الأم التي تدمّره نفسياً ، على غرار حريق داخلي ، لم تعد موجودة فجأة بالنسبة إليه . ولكي يحتمي من الآلام التي ما زال بإمكانها أن تنزلها به ، بترَ نفسه من هذه العلاقة التي تسمّم وجوده . فلّكي نُفّلت من عدوى الأنانية المميتة والعنف النفسي ، نلجأ إلى «إلغاء» الآخر من وجودنا . إذ يتعيّن وضع حدّ للحريق الداخلي الذي يلتهبنا .

ففي هذا المشهد ، ليس الكلام هو ما فجّر القطيعة ، وإنما غيابه . فالصمت فاعل ، إذ يلغي الابن ، ويكرّس العنف الأموي . إنها قسوة ما لم يُقال ، وما لم يُفعل . فالكلمات

Lionel Duroy, *Le Chagrin*, J'ai lu, 2011, pp. 185-186.

(1)

والحركات التي لم يتم التعبير عنها ، وفراغات الصمت التي لا تُحتمَل ، تُوقِفُ العلاقة . إذ تدمرُ الجمل التي لم يتم التلفظ بها أحياناً أكثر من الشتائم ذاتها .

فليس هناك من كلام من قِبَل الأم ، ولا حتى مجرد نظرة ، أو أدنى مظاهر الاهتمام . يُوقَّعُ هذا الغياب نهاية التعلُّق ، واستنزاف كل حبٍّ مُمكن . ففضاعة غياب التواصل ، في تلك اللحظة ، بعد بلوغ نوبة الأعصاب ذروتها ، تؤدِّي إلى الانفصال الجذري . إذ لم يعد لدى الفتى أي عاطفة نحو أمه . وكأنها تلاشت للتو في دخيلة نفسه ، إثر هذا المشهد الصاعق الذي تحول إلى نقطة قطيعة . أصبحت أمه بمثابة الميتة بالنسبة إليه ، شبح الأم التي لم تعرف أن تكون أماً بالنسبة إليه ، فلم يعد لها وجود إلا كوجه غامض ، مفرَّغ من حب الابن الذي يجعلها توجد بمثابة أم .

ويتابع الراوي قائلاً : «عندما ماتت أمنا ، بعد سنوات عديدة ، تعجبت من عدم شعوري بالأسى على موتها (أو القليل منه فقط) ، توصلت إلى تفسير ذلك لنفسي ، بأنها كانت قد ماتت نفسياً بالنسبة إليّ ، وأن موتها يعود بلا شك إلى لحظة نوبة الأعصاب الشهيرة تلك ، يوم عيد ميلادي العاشر ، حيث بكيتها حينها وكأنني لن أراها ثانية أبداً⁽¹⁾ .

(1) المرجع نفسه ، ص 186 .

وبشكل أدقّ، فلقد أَصْبَحْتُ، على النقيض من الشبح، كائنًا حاضراً جسدياً، إلا أنها لم تعد تعني له شيئاً، ولم تعد تثير لديه أي مشاعر. لقد أصبحت غريبة بشكل فظّ. ولأنه لم يعد قادراً على دفع ثمن الحب الباهظ لهذه الأم الأنانية، فلم تعد تشكّل موضوع توظيف عاطفي بالنسبة إليه. نحن لسنا هنا بصدد قرار مأخوذ بتمعّن وإنما بصدد نوع من الانتفاضة، وردّ فعل نفسي تلقائي للحفاظ على البقاء. إذ هي لم تعد تلك الأم الحبيبة بالنسبة إليه.

إلا أنه من الممكن أن تحدث هذه القطيعة، هذا الانطفاء العنيف للحب، بمعزل عن أي سوء معاملة. فكما يتوقف حبّ صديق أو حبيبة، من الممكن، كما تؤكد عليه كاترين مالابو، في مقطع مدهش من عملها بعنوان أنطولوجيا الحادث، أن يتلاشى الحب العائلي. لا يعود الآخر يشكّل بالنسبة إلينا موضوعاً لحبنا، ويصبح كأنه لم يكن:

من الممكن أن يأتي يوم، لا نعود نحب فيه والدنا ولا أسرتنا. «أنا لم أعد أحبهم الآن. ولا أعرف حتى إذا كنت قد أحببتهم. لقد تركتهم». كما لا يحدث زوال حبّ من هذا القبيل بمجرد «مرور الزمن». إذ لا نتوقف عن حب أقاربنا «تدرجياً» ومن الممكن حتى أن لا نتوقف عن حب

أي كان أبداً «تدرجياً». إنني من أولئك الذين يعتقدون أن انتهاء الحب يتّصف دوماً بالفظاظة⁽¹⁾.

لا بدّ من الإقرار بالقلق العميق الذي تولّده هذه السطور. إلّا أنه يتعين علينا النظر كذلك في أن الحب، مهما كانت طبيعته، يمكن أن يتعرّض للتلاشي المفاجئ. وأن هناك ما لا يمكن إصلاحه. أي لحظة قطيعة لا رجوع عنها.

Catherine Malabou, *Ontologie de l'accident*, op. cit., p. 58.

(1)

8

حالات اختفاء

«كم من أشخاص يتركوننا أو يغادرون
أنفسهم قبل أن يختفوا؟»⁽¹⁾.

كاترين مالابو

«الآخر مفقود، إنه يبتعد بلا هوادة. إننا نعرف ذلك، إلا
أننا نجتهد في البداية لتعويض إخلاله بنا، وإصلاح الروابط
التي تنحلّ، من خلال اعتمادنا على قوانا الذاتية [...] .
تصبح حالات توهان الآخر غير قابلة للاحتمال بحيث لا يتبقى
في النهاية سوى حلّ واحد: أن نقوم بأنفسنا بقطع العلاقة التي
أصبحت مستحيلة»⁽²⁾. هل نحن هنا بصدد رواية نهاية حبّ
يائسة، أي الإعلان عن قطيعة غرامية؟ نعم ولا. يشير
الفيلسوف ميشيل مالرب في هذا المقطع، «تصدّع الوجود»⁽³⁾
وانتهاء علاقته مع زوجته آني. إذ جعلها مرض الألزهايمر

(1) المرجع نفسه، ص 50.

(2) Michel Malherbe, *Alzheimer*, op. cit., pp. 37-38.

(3) المرجع نفسه، ص 37.

غريبة عن ذاتها إلى حدّ بعيد، بحيث بدّت القطيعة هي المخرج الوحيد.

إنها لطريقة جدّ غريبة أن نخسر شخصاً عزيزاً علينا، عندما ينتزعه المرض منا مع إبقائه حاضراً وحيّاً، ولكنه لم يعد معروفاً، وعاجزاً عن القيام بدوره، يهجرنا عن غير قصد، وحتى أنه أحياناً دون أن يعي ما يربطه بنا من علاقة عاطفية. يتعيّن علينا عندها أن نقوم بإنعاش هذا الرباط الذي ينطفئ بمقدار ما يزول الآخر ويغيب عن العلاقة. يجعل المرض هذا الرباط هشّاً بل يكسره عندما يصيب القدرات الجسدية والعقلية، وعندما يشكّل التعابير ويجمّدها، وينخر الذاكرة، ويمنع الكلام والتواصل. وعندما لا يعود الاضطراب المرضي يتيح التعبير عن المشاعر، ويمنع الحوار، ويقيّد حتى الشكوى محولاً إياها إلى مجرد دموع، ونحيب مقموع. كيف السبيل إلى تحمّل فقدان مَنْ لا يزال حاضراً بيننا، ورؤيته يبتعد عنا بمقدار تقدّم المرض واستفحاله، وبمقدار تلاشي قواه، وفقدانه شخصيته؟ نشاهدُ ونحن عاجزون، معاناته وآلامه التي يدرك أنها تحطّ من كيانه، وهي معاناة تضاعف من معاناتنا وآلامنا. إلّا أننا نعاني كذلك في بعض حالات المرض النفسي العقلي، والعصبي، وكذلك في بعض حالات الإدمان، من اللامبالاة التي يبدو أن المصاب يظهرها تجاه فقدان هذه العلاقة. يتركنا المريض لأنه ترك نفسه بمعنى ما قبلاً، كما تذكره كاترين مالابو جيّداً. لقد تخلّى، ودون أن يدري أو يعي، عن

الشخص الذي سبق له أن كانه، وأصبح نهائياً كائناً آخر، إذ غيَّره المرض. تقع عندها على عاتق قريبه المهمة المرهقة المتمثلة في إعادة نسج رباط يتفلَّت عند كل لحظة، وأن يرضى بعناية علاقة يبقى وحده متعلقاً بها أحياناً، بينما يغرق المريض في فقدان الكلِّي للوعي بحالته. وهي علاقة تتعرض على الدوام لعدم الاعتراف بها من خلال الافتقار المستمر للتفاعلات، ومن خلال زوال إيماءات الألفة والشراسة، وفقدان التقارب الفكري والجسدي. فالقرين الزوجي، أو أحد الوالدين أو الابن يشكلون عندها الضمان للشخص المحبوب الذي يرويه يتلاشى من الوجود بمقدار استفحال المرض الذي يُبدِّله، وبمقدار ما تنال منه نوبات هذا المرض.

كيف يحدث أن نفقد شخصاً ما حتى قبل موته؟ إننا نفقده لأن العلاقة قد انكسرت، ولأنه لا يعود بإمكاننا التعرف إليه. إذ يبرز في أسلوبه في الوجود، والتفكير وطريقة التواصل معنا، تغير عميق يبدو لنا معه أنه أصبح مختلفاً جذرياً عن الشخص المحبوب. تلخّص أوليفيا روزنتال في روايتها حول مرض الألزهايمر بعنوان لسنا هنا كي نختفي بكلمات محدودة هذا الاختفاء: «أنت تبتعد. أنت لم تعد كما كنت في السابق. أنت تصبح كائناً آخر. أنت مصاب بمرض الألزهايمر»⁽¹⁾.

بالنسبة إلى القريب الذي يزور المريض بانتظام، تتمثل

(1) Olivia Rosenthal, *On n'est pas là pour disparaître*, op. cit., p. 70.

الحالة بما يشبه «نزيف الحضور» [التلاشي التدريجي للحضور]، تبعاً لتعبير ميشيل مالرب. ففي كل زيارة جديدة، هذا إذا أمكن الكلام عن زيارة مع قريب يصبح غريباً أكثر فأكثر، لا يمكن سوى التحقق من ذوبان الحب وتفتت العلاقة، التي تنحسر في فتات من الجُمل. في هذا الموت البطيء، نصلُ حد تمنّي موت المريض، كما تعبّر عنه أوليفيا روزنتال:

لا تجبرني على أن أتركك

أرجوك

اختفِ

الآن

حالاً،

وبشكل عاجل⁽¹⁾.

يصف ميشيل مالرب العنف المفرط لخسارة الكائن العزيز، وهي خسارة تتكرر يومياً، بـ«أحدهم يتلاشى وهو حي»⁽²⁾، ويضعُ الكاتب بشكلٍ بالغ الدقة مفهوم التعرّف في صلب تحليله. إذ يشير إلى «نزيف التعرّف»: إننا لا نعود نتعرّف على الآخر الذي لم يعد يتعرّف علينا هو بدوره. ولا يتبقى سوى ذكرى الشخص الذي نتعلّق به بمعاناة كي نتمكن

(1) المرجع نفسه، ص 77.

Michel Malherbe, *Alzheimer*, op. cit., p. 10.

(2)

من الاستمرار في أن نرى فيه الشخص المحبوب. تُدْكَرنا بعض انتفاضات صحوته بذاك الشخص الذي هو قيد الزوال. فهويته الواهنة بازدياد ترسلُ بعض الإشارات من آن إلى آخر. وإذا لم يعد هناك من تعرّف إلا من خلال هذا الجهد المتكلّف، بغية تلمّس إشارات هزيلة عن حضوره، فهل يمكن الكلام حقاً عن وجود ذاتية؟ ما الذي يجعل هذه المرأة المريضة تظل زوجتي؟ ذلك ما يتساءل ميشال مالرب بصدد، فهل ما زال يتقاسمان تاريخاً مشتركاً، وهل ما زال مرتبطين بعلاقة مشتركة؟ يجيب مالرب بكلا. «فكيف يمكن متابعة قصة تكون بلا بطل؟»⁽¹⁾.

يستعمل مالرب، بغية رواية خسارة الآخر الذي ما زال حياً، تشبيه التحجّر. فمرض الألزهايمر «يغرس أحدهم في مادة العالم، على غرار أحفورة تحجرت في طبقة من الرواسب»⁽²⁾. يستمر المريض إلّا أنه «لا يستمر في الوجود الفعلي»⁽³⁾. إذ لم يعد الوعي وعياً قاصداً [يريد التفكير بشيء أو الإقدام عليه]، إنه «يستمر، ولكنه لم يعد يتحول إلى فعل، بل هو يتحقق في ديمومة تفتقر إلى الشفافية»⁽⁴⁾. يعكس الوجه، مرة أخرى، هذا التفتّت الداخلي، وهذه الاستحالة أن

(1) المرجع نفسه، ص 10.

(2) المرجع نفسه، ص 11.

(3) المرجع نفسه، ص 225.

(4) المرجع نفسه، ص 226.

يكون المريض ذاتاً موحّدة وحيّة: «كلامه يختلُّ بلا هوادة، فيصبح صمتاً؛ نظرته أصبحت جامدة، مع أنها وفيّة وباسمة، وكل مظهره يتخشّب. ومع ذلك فلقد احتفظت بمحياتها المحبّب. إلّا أنها تحولت إلى مجرد أحفورة متحجرة»⁽¹⁾. يجعلنا هذا نفكر بتمثال من شمع، ذي ابتسامة خالية من التعبير. يمكننا أن نتذكر في هذا المقام التحليل المذهل الذي قدّمه سبينوزا في عمله بعنوان علم الأخلاق، عن جسد حي إلّا أنه بمثابة الميت. وانطلاقاً من قصة شاعر إسباني مصاب بفقدان الذاكرة، يدافع سبينوزا عن الفكرة القائلة بأن جسداً ما، مع أنه ما زال حياً من وجهة النظر البيولوجية، إلّا أنه يمكن اعتباره بمثابة الميت:

لا يمكنني في الواقع أن أنفي كون الجسد الإنساني، مع أن الدم ما زال يجري في عروقه، وأنه ما زال يبدي بعض علائم الحياة، يمكن مع ذلك أن يغيّر طبيعته إلى طبيعة أخرى مختلفة كلياً. ليس هناك من سبب يجبرني على أن أقبل أن الجسد لا يموت إلى بعد التحول إلى جثة؛ فالتجربة ذاتها تقنعنا بالعكس، على ما يبدو. إذ يتعرض الإنسان أحياناً إلى تحولات بحيث يصبح من الصعب القول إنه لا يزال هو ذاته⁽²⁾.

(1) المرجع نفسه.

(2) Spinoza, *Éthique*, Flammarion, coll. «GF», 1993, partie IV, = scolie de la proposition XXXIX, p. 258.

جسده قد مات بمعنى أنه توقف عن التعبير عن فرادة هذه الذات. وهو ما يتحقق منه ميشيل مالرب عندما ينظر إلى زوجته المصابة بالألزهايمر. إذ لم تعد علائم شخصية آني تظهر على جسدها. لقد هجرها لطفها المُمَيِّز والمُمَيِّز لشخصيتها. ولم يَعُدْ جسدها أن يكون سوى مجموعة من الأعراض. لم يَعُدْ هذا الجسد يعبر عن ذاتية زوجته، وإنما هو يعبر فقط عن المرض الذي اجتاحتها وبدّلها.

أصبحت الإشارات الدالة تعبر عن المرض أكثر مما تعبر عن شخصها، بما يبرز نمطاً عيادياً مرضياً أكثر مما يبرز هوية فريدة. وكأنني، عندما أواجه آني، أفقد القدرة على التقاط ما سبق لي أن ألتقطه منذ اللحظة الأولى، وأعني بذلك، لطفها الشخصي المرحّب، وهذا التميز الكياني الذي جعلها فريدة في نظري⁽¹⁾.

فهل ما زال هناك أحد؟ وهل ما زلنا بصدد شخص؟ وهل ما زلنا بصدد زوجته؟ فالمريض هو في الآن عينه شديد الحضور جسدياً، وهو حضور لا يحتمل أحياناً ولا يمكن التكرار له، كما أنه غائب، غائب عن العلاقة معي ومع ذاته.

= دُكر أيضاً في Catherine Malabou dans *Ontologie de l'accident* (op. cit., p. 36).

Michel Malherbe, *Alzheimer*, op. cit., p. 225.

(1)

إنها هي وليست هي في آن معاً. إنها أشبه ما يكون
 بنصّ مكتوب، نقول عنه إنه طالما كان نصّاً، يتعين أن يكون
 له معنى، إلّا أن هذا المعنى على درجة من الغموص ما
 يدفعنا إلى التساؤل فيما إذا كان فعلاً نصّاً. إنها حاضرة،
 نعم، إلّا أنه حضور لا يمكننا إعطاؤه معناه. حضور وغياب
 في آن معاً. إنه حضور في الغياب قد لا يعدو كونه غياب
 في الحضور. كيف السبيل إلى التمييز بينهما⁽¹⁾؟

الآخر هو هنا، إلّا أنني لا أستطيع الوصول إليه، لأنه في
 مكان آخر. هل ما زال هو ذاته؟ كيف السبيل لتحمل هذا
 التعذيب العاطفي الناتج عن هذا التبدّل في كيان الحبيب؟
 علينا التفكير بقطيعة عقلية، ونوع من فكّ الارتباط. هذا
 ما تقترحه أوليفيا روزنتال في عملها بعنوان لسنا هنا كي
 نختفي، حيث تدرس ردود فعل كل شخص تجاه ذاك الذي
 اختفت ذاكرته، وارتباطه بالواقع والآخرين. ففي مواجهة
 «مرض الألزهايمر»، يتعين أن تجري انفصالاً. أي انفصال ما
 بين الشخص الذي كان قبل المرض وذاك الذي تحوّل بسبب
 المرض. «يتعين أن نقوم بجهد النسيان. وجهد الفصل. أي
 الفصل بين ما هو كائن الآن [بعد المرض]، وما كان عليه
 سابقاً. الفصل بين الإنسان الذي أحببناه ومَن نقوم بزيارته
 حالياً، ولكن دون أن نتوقف عن حبه. أن نحفظ بالحب وإنما

(1) المرجع نفسه، 15.

أن نفصل. وهي مهمة مستحيلة: أي الحفاظ على الحب والفصال»⁽¹⁾.

يتعين إذاً أن نفصل، وأن نميز ما بين الشخصين اللذين هما مع ذلك الشخص ذاته. الحفاظ على الذكرى السعيدة للشخص المحبوب والاستمرار في حبنا له، والنجاح في الآن عينه في فصله عن الشخص هنا أمامنا [المريض] والذي يجسّد نفي هذا الحب ذاته، الذي يحطّ من كيانه، ولكن دون أن نحطّ نحن من قدره في نظرنا.

يجب أن نمارس القطيعة، لأن المرض يدمّر العلاقة، بل يهدّد أحياناً أن يصيب بعدواه الذكريات السعيدة بصور منفرة، ويلقي ظلال الشكّ اللاحق على طبيعة العلاقة السابقة ذاتها. إذ لا يقتصر المريض على فقدان ذاكرة ما سبق أن كان عليه، وإنما هو ينسى كذلك مَنْ لم يعد بإمكانه أن يكونه على كل حال. في كتابة تتصف بالرهافة، وتتقدم تدريجياً، وكأنها تؤكد كشف مختلف طبقات الوعي، تقدّم لنا الراوية مظهراً آخر من المرض العقلي وقدرته على تدمير الروابط العاطفية: «لا يمكن أن يخطر ببالك أبداً أن يخلط أبوك ما بينك وبين أمك. [...] ولا يمكن أن يخطر ببالك أبداً أن يشتهيك معتبراً إياك أمك [زوجته]»⁽²⁾.

(1) Olivia Rosenthal, *On n'est pas là pour disparaître*, p. 152.

(2) المرجع نفسه، ص 35، 58.

ودون أن نذهب بعيداً، وصولاً إلى لحظات كهذه يمكن أن تصدّع كيان الأقارب، نرى جيّداً كيف يعرّي المرض الشخص من هويته، التي «تفتت وتتقطع صلاتها»⁽¹⁾، وينتهي كذلك بتدمير إمكانية العلاقة ذاتها، والحفاظ على الحضور أمام الشخص الذي سبق لنا أن كنّا نحبه. نجدُ هنا كذلك بلا شك شيئاً بمثابة نقطة قطيعة، أو لحظة مفصلية، حيث لا تعود العلاقة فيها ممكنة، عندما يكون الآخر غائباً عن ذاته بحيث لا يعود هناك ما يسند شعور التعرف [لا على الذات ولا على الآخرين]، ما عدا ربما مجرد تشابه فيزيقي، على غرار تشابه تمثال من الرخام مع جسد من لحم ودم. عندما ينطفئ الآخر، أجهّد نفسي كي أصل إليه، يقول بارت، ويجتاحني شعور بالجنون: «عندما يحدث خفوت الآخر، يسبّب لي القلق، إذ يبدو هذا الخفوت من دون سبب ومن دون حدود. وعلى غرار سراب حزين، يبتعدُ الآخر، ويتلاشى في اللانهاية، ما يجهدني جداً أن أصل إليه. [...] وهكذا لا يتوقف الكائن المحبوب عن الخفوت والتلاشي، مولّداً مشاعر جنون أكثر حدّة ممّا لو كان هذا الجنون عنيفاً»⁽²⁾.

(1) Michel Malherbe, *Alzheimer*, op. cit., p. 225:

«منقطعة ومفتتة في شظايا زمنية متتابعة ومنفصلة بفترات غيبوبة ذهنية طويلة، أصبحت هويته الشخصية عبارة عن لغز غي قابل للحل».

(2) Olivia Rosenthal, *On n'est pas là pour disparaître*, op. cit.

ليس من المفاجئ أن نعاود العثور من جديد على مصطلح «الخفوت» (Fading) الذي قال به بارت. فهو ذاته يستعمل هذا المصطلح كي يصف لحظات فقدان الوعي عند جدة راوي قصة البحث: «خفوت يفطر القلب: فقبل موتها بقليل، لا تعود جدة الراوي ترى ولا تسمع، للحظات؛ لا تعود تتعرف على الحفيد بل تنظر إليه «بدهشة وحذر، واستهجان»⁽¹⁾.

نرى هنا مدى ملائمة مفهوم «الخفوت» هذا الذي يشي بذوبان الحب، وفقدان العلاقة لنكهتها، وخفوتها التدريجي، ما يتيح التفكير بالتباعد العاطفي، وتدهور العلاقة، والاختفاء البطيء لذاك الذي يغيب عن الآخرين، بقدر ما يغيب عن ذاته، في حالة الخرف، أو المرض، أو العجز، أو الإدمان. فالكائن المحبوب لم يعد سوى ظلّ ذاك الذي كانه بالنسبة إلينا سابقاً: «يبدو أنه ذهب بعيداً في الضباب، ليس حالة من عدم، وإنما حياً يشكّل صورة مهتزة، في منطقة الظلال [...]، أنادي [...] وإنما ما يأتيني لا يعدو كونه مجرد ظلّ»⁽²⁾.

فما يشير إليه مرض الألزهايمر بشكل صارخ لجهة التجربة الصادمة التي يشكلها بالنسبة إلى أقارب المريض، ربما قد لا يكون بعيداً عما يحدث بشكل أكثر خفاءً في عملية الخرف. فتبعاً لكاترين مالابو، يبدو أن الكسر ذاته في العلاقة يبعد

Roland Barthes, *Fragments d'un discours amoureux*, op. cit., (1) p. 145.

(2) المرجع نفسه، ص 146.

الشخص المتقدم جداً في السن عن ذاته وعن الآخرين: «فالخرف يبقى أساساً عبارة عن قطيعة؛ فهي تكسر الشخص بشكل غير محدد، وتجعله يغيّر دربه، وتقوده إلى أن يصبح كائناً آخر»⁽¹⁾.

يتوقف قربنا المتقدم في السن عن أن يشبه ذاته، ويشكّل هذا التحول السبب في نهاية الحب الأسري. وهكذا نتباعد عن أقاربنا قبل اختفائهم. «قد لا أبتعد كثيراً عن الواقع إذا فكرت أن نهاية الحب فظة على الدوام. إنما في حالة الوالدين، فإن ذلك يأتي، بالتأكيد، بشكل مفاجئ، كالموت تماماً. ننفصل عنهم قبل الموت، ولا يفعل الموت الحقيقي إلا تأكيد الموت في الروح. إلا أن ذلك ليس أقل إيلاماً للنفس. إنه يولّد إحساساً بالفراغ والبرودة، وإنه لمرعب أن نقول وداعاً قبل النهاية، وأن نقول وداعاً أخيراً بينما لم ينتهِ كل شيء بعد»⁽²⁾. في هذه القراءة الجذرية، والتي يتعيّن أن نأخذ الوقت الكافي للمزيد من مناقشتها، يُقال عنصر جوهرى؛ فموت الآخر هو «موت في الروح». يموت الآخر أولاً في أذهاننا، لأنه أصبح جدّ مختلف عن ذاته، فنشطب علاقتنا معه، أي تلك العلاقة كما كنا نعرفها. تغيّر هذه العلاقة كيفيتها أو تتوقف كلياً.

(1) Catherine Malabou, *Ontologie de l'accident*, op. cit., p. 52.

(2) المرجع نفسه، ص 58.

تترك تجارب فقدان تلك أثراً عميقاً. إذ ينطبع عنف
البليّة النفسي فينا بشكل لا يُمحى ويعاود الظهور أحياناً خلال
حياة مغايرة.

9

جنسانية القطيعة

«بعد العاصفة، جنون الإقبال على الحياة
هو الذي سيتدفق ثانية، نودُّ بعدها أن
نلتهم الشمس والنجوم»⁽¹⁾.

باتريك أوتريو

إلى أي حدّ تترك القطيعة الوجودية أثرها فينا؟ إلى حدّ
أعمق ممّا تخيلناه، وصولاً إلى لبّ الرغبة ذاتها، وحتى في
توقنا للآخر، وفي علاقاتنا الجسدية والجنسية. إذ ننتظر بعد
قطيعة حياتية من قبيل الحداد، أو المرض الخطير، أو القطيعة
الغرامية التي تزلزل الكيان، ننتظر بفارغ الصبر العودة إلى
الحياة «العادية». كما يتلمّس أقاربنا كذلك مؤشرات «تحسّن
ما». إلّا أننا لا نعود إلى الحياة السابقة كلياً. وكما تعلمنا
الفيلسوف والطبيب جورج كانغيلام، في تحليله حول السوي
والمريض، ليس هناك من عودة إلى الحالة السابقة تماماً، بعد

Patrick Autréaux, *Dans la vallée des larmes*, Gallimard, 2009, (1)
p. 37.

المرض⁽¹⁾. وما ينطبق على المرض يصدق بدوره بلا شك على بقية أنماط القطيعة. إذ تبقى هناك عواقب، وآثار، ووصمات، أي تبقى بصمة وعلامة الانتزاع، والخسارة. إذ انكسر شيء ما فينا، ما يمنع نمط الإسقاطات ذاتها، ونمط الحماس، والثقة عينهما. فالقطيعة هي أيضاً قطيعة حيوية، تنطبع فينا عضوياً. إذ هي تؤثرُ بعمق على الانطلاقة النفسية والجسدية، كما تؤثر على رغبتنا وتناوّل منها. غالباً ما نفكر أنه بعد المحنة، تتأجج في الذات الرغبة في الحياة، من خلال سريان طاقة مستعادة. بعد التجاور مع الموت، سنكون مأخوذين بطاقة حيوية جديدة وقوية. يدلّل باتريك أوتريو في روايته بعنوان في وادي الدموع على هذا التوقّع الاجتماعي: يتعين أن يتعلق المريض السابق بالحياة من جديد، ومن دون أي فارق، وكأن المرض لم يكن سوى حالة عابرة، بين قوسين.

يؤكد لك الآخرون، وخصوصاً إذا لم يمرضوا أبداً، ولا يسعهم في توكيدهم ذاك سوى الافتراض، أنه بعد العاصفة، فإن جنون الإقبال على الحياة هو الذي سيتدفّق ثانية، ونودُّ

(1) انظر Georges Canguilhem, *Le Normal et le Pathologique*, PUF, 2013. وانظر أيضاً الفصل الرابع، ص 128: «الشفاء، رغم العجز، يترافق على الدوام مع خسائر جوهرية بالنسبة إلى المتعضي مع عودة بروز نظام ما. ونكون عندها بصدد معيار فردي جديد».

بعدها أن نلتهم الشمس والنجوم. ويُقال لي ببراءة: هذا مدهش، أنت في أتم الصحة، لقد شفيت تماماً⁽¹⁾.

نتوقع أن يعاود الشخص الانتشاء كزهرة في الربيع. وقد يعتقد المريض ذاته بذلك لبعض الوقت. إذ يأمل ببراءة وسذاجة استعادة جسده وحياته السابقين. «بعد انتهاء [العلاج المضاد للسرطان] نعتقد أننا سنبدأ ثانية من الصفر. ونقول لأنفسنا إن ذلك كان مجرد امتحان عبور وإنه في الحياة الجديدة ستُعْطى لنا كل الفرص»⁽²⁾.

ولكن لا يعني ذلك البداية من جديد. فالشخص لم يعد هو ذاته والشفاء أو تراجع المرض يمثل منحى جديداً في الحياة، كما يذهب إليه كانغيلام. فالمرض، كما الحداد أو الأشكال الأخرى من الصدمة النفسية، يترك في النفس قلقاً عميقاً، واستحالة إقامة علاقة هادئة وواثقة بالحياة، بل هو يخلف وراءه توتراً خاصاً مع ميل إلى التهيج. إذ لا نعاود البدء من الصفر، حيث تترك الإصابة آثارها فينا. فالعودة إلى الحياة العادية ليست تحصيل حاصل. «كيف يمكنني أن أبدأ أي شيء جديد مع كل تركة الأمس في نفسي؟»⁽³⁾. ذلك ما يتساءل عنه ليونارد كوهين في عمله بعنوان الخاسرون المتمتعون بالجمال. يبين فيليب

(1) Patrick Autréaux, *Dans la vallée des larmes*, op. cit.

(2) المرجع نفسه، ص 35.

(3) Leonard Cohen, *Beautiful Losers*, [1961], Blue Door, 2009: «How can I begin anything new with all of yesterday in me?»

فورست في روايته بعنوان الحب الجديد جيّداً صعوبة استعادة الحياة لمسارها المعتاد، وسماح البطل لنفسه بالوقوع في الحب ثانية، والتعلّق بامرأة أخرى، وتوقّد عاطفته تجاه طفلها بعد فقدانه لابنته وانفصاله عن رفيقة دربه. كما يشير إلى الضغط الاجتماعي الذي يدفعه إلى لعب لعبة الارتباط والثقة، ويشجّعه على الانغراس ثانية في الصّيغ المطمئنة، حيث يتعيّن عندها قلب الصفحة، وإنجاب طفل آخر، والانطلاق بخفة في إنشاد مقاطع أغنية وجود من دون مأساة، وكأننا نخرج من الكارثة من دون أضرار.

إلا أن الكارثة تركت بصمتها في قلب الكيان ذاته وفي نبضه الأولي، في القوة البدائية للربّة الجنسية. يبدّل عنف المحنة رغبتنا، كما يغيّر جنسانيتنا التي تصبح أكثر زخماً، وأكثر «اضطراباً»⁽¹⁾. تجرف الرغبة الجنسية، التي تتضاعف وتصبح صعبة الإرضاء، الشخص في عدم انضباطها: «أصبحت أتعطش لتعدد الأجساد، وللخروج عن المألوف. إذ فَقَدَت الرغبة كل قاعدة وكل نمط مألوف. [...] ولأنني أصبحت مفتوناً بتنوع رغبتني، وشطحاتها واحتجاجاتها غير المنتظرة، فلقد أحسست وكأنني مومس مقدسة»⁽²⁾.

لا تشكّل مسألة الجنسية هذه بعد الكارثة موضوعاً

(1) Patrick Autréaux, *Dans la vallée des larmes*, op. cit., p. 36.

(2) المرجع نفسه، ص 38-39.

مألوفاً. إذ إننا لا نتكلم في هذه الموضوعات المحظورة مع مريض سابق، أو أب مفجوع وفي حالة حداد. ولكن هذه الرغبة المتفلّنة من عقالها تشكّل أحد الأعراض القوية لتحول عميق حميم. إذ لسنا هنا بصدد عودة الرغبة في الحياة، كما يحلّلها عن حقّ فيليب فورست، ولا بصدد التّعطّش للعيش، وإنما على العكس إننا بصدد التعبير عن العدم الذي انغرس فينا الآن.

لم يتكلم أحد مطلقاً عن هذا الفوران الغرامي الغريب الذي يحدث لدى أولئك الذين جعلهم الوجود يتجاوزون الأسى، ذلك التوقد الذي ينجرّفون إليه أحياناً، والذي لا يمتّ بحال إلى التطلّع إلى الحياة من جديد، والرغبة في استعادتها، وتجاوز الشجن المصاحب للوصول إلى حافة الهاوية حيث ينتهي كل شيء. كلا، وإنما ما هو خارج عن المألوف يتمثل في الفكرة التي تذهب إلى أن العدم يتغلغل تحديداً حيث يتعيّن منطقياً أن تضع الطاقة المستعادة للجسدين العاشقين والهائمين ببعضهما البعض، كلّ ما تبقى بين قوسين [إلغاء كل المعاناة السابقة]... [فالقوة الفاعلة بعد تجاوز اليأس، تنبجس في مكان ما فينا، وتحرّر شيئاً ما لا نتعرّف إليه: إنه عنف يتوجه إلى العالم، وحيث يصبح كل منا بالنسبة إلى الآخر صورة هذا العنف أو موضوعه - وهو عنف نتشي به بشكل فضائحي⁽¹⁾.

يشكّل الاسترسال في هذه الجنسانية تعبيراً مفارقاً عن هذه النزعة التدميرية المغروسة فينا. تماثل هذه الجنسانية المفترسة التبنّي الذاتي للعدم والقبول بحضوره، بمثابة عنصر مركزي في حياتنا. لقد انغرسَ في نفوسنا شيء من العنف الذي فُرض علينا. إذ يبقى فينا أثر حريق العدم وأذيته. في جنون البحث عن النشوة، يتخفّف الشخص المنكوب من شطر من هذا التوتر المدمّر الذي يعتمل في نفسه. ويصبح رغماً عنه هو مبدأ العنف، ويأخذه لحسابه. فالليبدو المتفلّت من عقاله يعلّمنا شيئاً عن العنف الذي أصابنا ودمّرنا جزئياً، لما يقارب القضاء علينا. إنه يشي بشيء عن هذا العدم الذي تسجّل في تاريخنا. إنه التعبير من خلال الجسد، وفي العلاقة مع الآخر، عن تجربة فقدان التي يتعذّر البوح بها. من خلال التقارب الرمزي ما بين الجنسانية وتنفيذ الحُكم بالموت، يُمثّل هذا «الفوران الغرامي» في الواقع أسلوباً في إعادة لعبة التنفيذ المزدوج للحكم بالموت، الذي اقترب المرء منه خلال مأساته، أي تنفيذ الحكم بالموت لكلّ من الذات والآخر. إنه تنفيذ الحكم بالموت على ذلك الكائن الذي كناه في سذاجته، وثقته بالحياة من ناحية، وحداد على اللامبالاة المفقودة في علاقتنا بالآخرين وبالعالم من ناحية أخرى، طبقاً لما يعبر عنه باتريك أوتريو: «إلا أن هناك شيئاً لم يُعدّ، وغيابه يثقل عليّ وأعني: انبثاق الليبدو، وهذا

الإلحاح في الحصول على النشوة، كانا بالأحرى إشارات
لحداد بلا فقيد»⁽¹⁾.

تصبح الجنسانية عندها ذكرى الدمار السابق، وتصبح
الرغبة المكان الذي تقبع فيه بقايا العنف الذي فُرض علينا.
فهي ليست مجرد تعبير عن حب، أو عن توق إلى الآخر حيث
يعاود الفقدان البروز على المسرح، بشكل نهائي، ربما على
أمل غير مجدٍ بالتطهّر من العنف. وإنما تحمل هذه الجنسانية
أثر عبور ليل الكارثة.

10

عبور الليل

الليل هو مقرّ حالات القلق والذكرى التي تعذبنا. نقع أحياناً في فخّ الليل، عاجزين تجاه الوسوس النشطة، ولا نتمكن من اجتيازه من دون هواجس. فحالات أرقنا مكوّنة من ذكريات متّقدة. في عمله بعنوان محاسن التاريخ ومساوئه يشيد نيتشه بقدرة الإنسان على النسيان. إذ يستطيع الإنسان استعادة الماضي وتحويله إلى مجرد تاريخ. وكما يقول الفيلسوف، لا نستطيع التمتع بالصحة والطاقة الخلاقة الخاصة بالكائنات الحية، إلّا «ضمن حدود أفق محدّد». يتعيّن علينا أن نضع حدوداً لهيمنة الماضي على الحاضر، ومنعه من عرقلة اللحظة المُعاشة كي لا نسجن أنفسنا في التكرار العبثي، و«الاجترار»، والأرق الذي «يؤذي الكائن الحي وينتهي بالقضاء عليه»⁽¹⁾. هذا العجز عن النوم يقتلنا ببطء. الأرق هو استحالة التراخي، ورفض النوم بمثابة تخلّ. نوم الليل، والقبول بالغياب عن المسرح، من خلال نسيان اليوم السابق

Nietzsche, *Seconde considération intempestive*, op. cit.

(1)

والغياب عن هموم الذات، هو ما يحتاجه الوعي الحي كي يجابه تحديات مقبل الأيام. إلّا أن الوعي المحروم من النوم يمدّد بلا حدود الماضي الذي يرفض أن يُمَحَى. الأرق يمدّد حضور الماضي، ويرفض إجراء القطيعة معه، ويُنهك في هذا الجهد العبثي حتى دون أن يتنبه إلى ذلك. علينا القبول بتوالي الأيام والليالي، يقول نيتشه، والتمييز بين المنير والمظلم، والفصل بين ما يمكننا استيعابه بمجرد نظرة وما هو خارج مجال الرؤية. فهناك أشياء يتعين أن تظلّ على الدوام خارج نطاق الوعي. أي تلك الأشياء التي ليس بمقدورنا رؤيتها بكل معنى الكلمة. يشجّعنا نيتشه على «رسم أفق محدد حولنا»⁽¹⁾. أي القيام بعملية فصل وعزل، وتحديد نطاق الحاضر، ورسم الحدود. ولكن هل بإمكاننا بهذه السهولة، وضع حدود لما انطبع في النفوس، وإقامة فاصل بيننا وبينه؟

لا نملك كلنا الاستعداد نفسه لنسيان الماضي، ما يعني تحويله عملياً. ولسنا جميعنا قادرين على «امتلاك عناصر الماضي» وأن نستوعبها ونتغذى من هضمنا لها، أي «امتصاصها كي نحولها بشكل ما إلى نوع من الدم»⁽²⁾. لا يمتلك كل الناس، وكل الشعوب، وكل الحضارات «قوة المرونة» ذاتها:

(1) المرجع نفسه.

(2) المرجع نفسه.

أقصد تلك القوة التي تتيح لنا أن ننمو، ونتجاوز ذاتنا، وبأسلوب خاص بنا، وأن نغير أمور الماضي وندمجها في ذاتنا، وأن نشفي جروحنا، ونعوّض ما تَمّت خسارته، وأن نعطي نحن أنفسنا صيغة جديدة لما تحطّم في عالمنا. هناك أناس لا يملكون سوى القليل من هذه القوة بحيث يقضي عليهم حدث وحيد، أو ألم محدود، وأحياناً مجرد غبن صغير واحد بسيط، وكأن مجرد جرح واحد محدود يجعلهم ينزفون كل دمهم. بينما هناك آخرون، بالمقابل، لا تؤثر فيهم أحداث الحياة الأكثر وحشية وفظاعة [...] وبحيث سرعان ما يتمكنون من استرداد شيء من حسن الحال، ونوع من هدوء البال⁽¹⁾.

يتعيّن علينا مساءلة هذا الإطار الذي يتوجّب على كل منا رسمه حول ذاته، وكذلك مساءلة علاقتنا بالماضي التي ليست أبداً ذات طبيعة فكرية أو مجردة. إننا دوماً بصدد علاقة مع أشياء تمسّنا، ولهذا السبب ليس من السهل علينا أن ننساها. ليس لديّ صعوبة في نسيان أحداث التاريخ التي لم أعشها، والتي لم تترك آثارها في حياتي. وبالمقابل، يصعب عليّ استبعاد آثار حرب على أقاربي، أو نسيان رجل أحببته كثيراً، أو إغفال مكان كان لي فيه أغلى الذكريات. ولأن النسيان هو نوع من الانتزاع، فإنه صعب الاحتمال أحياناً، إذ إنه يؤكد

(1) المرجع نفسه.

على الخسارة النهائية لكائن معيّن أو لنمط من الوجود لا أعتقد أن بالإمكان تحمل غيابه دون أن أنهار. وبهذا المعنى، ليس هناك من «جروح بسيطة»، إذ يتوقف كل شيء على الصدى الذي يتركه هذا الأمر في تاريخنا. فالجرح البسيط يصعب احتماله على جلد مصاب بالحروق. إذ يصعب استيعاب بعض عناصر الماضي وهضمها. ولأننا منخرطون في الديمومة الزمنية، ومندرجون في ثنايا الزمن في العلاقات التي تمّ نسجها خلاله، فإن وجودنا ليس مجرد تتالي وحدات يمكننا فصل بعضها عن البعض الآخر، على غرار الممثل الذي ينتقل من مشهد إلى آخر في المسرحية. ولأننا ما زلنا نتمسك بماضيّنا، ونعتقد أننا نصمّد بفضل هذا الماضي، تبدو لنا القطيعة مكلفة إلى هذا الحدّ. يتعين علينا عندها أن نكون قادرين، ليس على نسيان هذا الماضي فعلاً، وإنما تحويله، و«إعطاء صيغة جديدة لما تحطّم في عالمنا»، كما يقول نيتشه، وبحيث نجعلها تنبثق من ذواتنا. تصبح القطيعة خلّاقة إذا تمكّنت من استيعاب ما تقوم بكسره. قد تنقذنا «قوة المرونة»، هذه القدرة على خلق شكل جديد من الحياة. إنها تكمن في قدرة الذات على إعادة اختراع وجودها أو هويتها من خلال القطيعة مع عناصر الماضي القاتلة، واستيعابها.

11

فسخ العقود

«أنا أعرف ماذا يعني أن نترنح»⁽¹⁾.

ماريون مولر-كولار

تحتفظ كل أشكال الحياة التي ابتليت بقطيعة وجودية زعزعت أركانها، وأفقدتها توازنها، ببصمة عميقة، غالباً ما فكرت فيها بمثابة حريق أو بمثابة تصدّع. كلها تتقاسم تجربة خسارة تمسّ كيفية تعريف الشخص لذاته، وحداده على فكرة معيّنة عن ذاته، وعلى فقدان هوية معيّنة. فبعد القطيعة لا يمكنني أن أفكر بذاتي كالسابق، كما لا يمكنني حتى أن أفكر كالسابق. فبنية تصوراتي ذاتها، ومفاهيمي الأخلاقية، وبشكل أعمّ معتقداتي أو إيماني تتعرض كلها للتغيير. إذ تكنس القطيعة معتقدات راسخة الجذور، والتي تدفع عنا بعيداً فكرة الشقاء. وكما تقوله الفيلسوفة ماريون مولر-كولار بشكل صائب، كل منا يغطي حالات قلقه بطبقة من غبار الاعتقاد: إذ إننا نعتقد

(1) Marion Muller-Colard, *L'Autre Dieu. La Plainte, la Menace et la Grâce*, Labor et Fides, 2014, p. 102.

أننا بمأمن، ومحميون «بسور» خيالي⁽¹⁾. إننا نعتقد بوجود شيء من قبيل العقد، أو العدالة التي تطبق على حياة البشر. فكل منا، في أسطوره الذاتية، يعرف «مبررات حياته، ويحدد أسس العقد الذي يجعل هذه الحياة مقبولة»⁽²⁾. إلا أن محنة المرض، أو العجز الناجم عن إصابة، أو موت عزيز، يفسخ العقود، ما يولّد لدينا الشعور بغبن جائر. ليس هناك من سور واقٍ، ولا يوجد شيء أو شخص يحمينا. تنهار هذه الاعتقادات تحت وطأة الواقع. فالمأساة، أو الحادث يشكّلان ألواناً من فسخ العقود الضمنية التي نعقدها سرّاً مع الآلهة، أو القدر، أو حسن الطالع، أو مع أرباب العقلانية الإحصائية، قائلين لأنفسنا إنه ليس من الإنصاف «أن نموت غداة التقاعد بعد أن كدحنا طويلاً»، كما أنه من المستبعد جداً «أن يصاب ابننا بنوع ثانٍ من الالتهاب الجرثومي بعد أن أفلت لتوه من الالتهاب الأول». وعندما ترسم إمكانية المصيبة، يمكن أن يصبح كل منا، سواء أكان إنساناً تقياً أو كان طبيباً، ضحية تلك الأوهام المطمئنة، والتي تعمي بصيرتنا في الآن عينه. حيث رأت ماريون مولر-كولار، المرشدة الروحية في

(1) تجدُّ صورة السور الواقية هذه والتي ترد عدة مرات في النص أصلها في شخصية جوب (Job)، انظر المرجع نفسه، ص 38: «نحن ننام النوم المطمئن الذي يميز أولئك الذين يعتقدون، على غرار جوب، أنهم محميون بسور واقٍ». انظر كذلك المرجع نفسه، ص 51: «الشيء الجوهري الذي فقده جوب، هو طمأنينة السور».

(2) المرجع نفسه، ص 39.

المستشفى، معتقداتها وقد كنستها المحن: «لقد رأيت هباء هذه المعتقدات التي حافظت عليها بعناية، تتطاير في شقوق حالات الحياة التي صدعتها طوارئ القدر. [...] لقد شهدت العديد من حالات العقود التي فسخها المرض»⁽¹⁾.

فتجربة حالات الحياة هذه التي أصيبت بـ«الحوادث» هي تجربة تتمثل بـ«عُري مرعب»⁽²⁾، ونوع من تعرية المتخيل اللاعقلاني الذي يحمينا من فكرة الموت والألم، سواء تعلق الأمر بنا، أو بأحبائنا. فلقد تعرضت هي ذاتها لمرض ابنها، ولتجربة التهديد بموته، ما ولدَ لديها قلقاً حيوياً [جذرياً]، ولقد حددت ماريون مولر-كولار من خلال هذه التجربة العقود الخيالية التي يعقدها كل إنسان مع «ربّه»، كي يدخل الطمأنينة إلى نفسه، وإلى أحبائه، وهو ما زَيَّفَ علاقتها بالإله⁽³⁾.

يتصدّع شيء فينا، خلال رحلة عبورنا لهذه الكوارث الشخصية. وهو شيء يمسُّ تمثّلنا لنظام العالم، ولسؤال معنى وجودنا، وكذلك سؤال العدل والظلم. تدفعنا هذه الصور

(1) المرجع نفسه، ص 38.

(2) المرجع نفسه، ص 41: «وإذا كنت قد تمكنت من مقارنة كل هؤلاء الأشخاص في العُري المرعب لحياتهم المصابة بالحوادث، فذلك لأنني أنا بدوري قد عانيت القلق المضني الذي سَمَّرني بجوار سرير مرض ابني» (تشير ماريون مولر-كولار هنا إلى تجربتها بمثابة مرشدة روحية).

(3) انظر المرجع نفسه، ص 82: تشير ماريون مولر-كولار في تحليل نقدي جدّ ثاقب لإيمانها، إلى «عقد حمايتها اللاواعي» مع الإله.

اللاواعية حول توازن العالم، وحساب المسرات والأحزان، وتوازن التحديات التي تجابه كلاً منا، إلى اكتشاف أنها لا تعدو كونها مجرد تركيبات ذاتية لجدران «قلعة يقين مطمئن»⁽¹⁾، يحمينا من النوائب. تذكّرنا ماريون مولر-كولار مقتبسة من المحلل النفسي لاكان، أن الواقع (Le réel)^(*) «هو ما نرتطم به»⁽²⁾، حيث نحن أنفسنا في «الحياة بشكلها اللفظي وكأنه تمّ إلقاؤنا في بركة ماء مثلج»⁽³⁾. «يطاردنا» الواقع أحياناً وكأننا طريدة⁽⁴⁾. لم نعد من جانب المشاهدين الذين يتأثرون أمام صور الآلام، والذين يستطيعون إطفاء الشاشة بمجرد كبسة زر. إننا في خضمّ قلق فقدان، وألم المعاناة، سواء معاناتنا أو معاناة كائن عزيز لا نستطيع الحدّ منها. تروي

(1) المرجع نفسه، ص 155: وذلك تبعاً للتعبير المستعار من قبل الكاتبة من بول تيليش في عمله بعنوان شجاعة الوجود.

(*) الواقع (Le réel) هو أحد ثلاثية لاكان الشهيرة: الواقعي، والرمزي، والخيالي. ومصطلح الواقعي اللاكاني هذا مدعاة للبس مع مفهوم الواقع (Réalité) كما هو شائع في اللغة العادية. وهو من أكثر المفاهيم اللاكانية التحليلية النفسية غموضاً واستعصاءً على التعريف الدقيق لغوياً، إنه تقريباً ذاك الذي «لا يُسمّى»، أو لا تسمية له تصنّفه عندنا، ما يشير الاندهاش القلق في النفس: تظل أفواهنا فاغرة لا ندري بصدد أي غرابة نحن. ولهذا فهو ما لا يُسمّى وبالتالي لا يصنّف ويوضع في خانة معرفية، تجعلنا نعرف كيف نتعامل معه، أو نتصرف تجاهه. (المترجم)

(2) Marion Muller-Colard, *L'Autre Dieu*, op. cit., p. 97.

(3) المرجع نفسه، ص 102.

(4) المرجع نفسه، ص 56.

ماريون مولر-كولار التجربة التي مرّت بها هي، إذ كانت تشاهد، وهي حامل، على «شاشة التلفاز الحامية» وثائقياً عن الأطفال المودعين في مستشفى نيكر، قسم طب الأطفال، ثم وجدت نفسها بعد عدة أشهر مع ابنها في قسم الإنعاش⁽¹⁾.

ماذا يمكننا التفكير عندها؟ «لم يكن ذلك مذكوراً في العقد»⁽²⁾. فأي عبث أن نرى هذه الحياة التي بالكاد تفتحت على الدنيا تذبل وتتقهقر، مهددة بالانطفاء بعد بضعة أسابيع من الولادة! لم يكن ذلك مذكوراً في العقد، لأنه ليس هناك من عقد أصلاً. ولأن الأشياء لا تحدث كما نتخيل أنها سوف تحدث. ولأنه في عالمنا العقلاني، نحن نطور تواطؤاً مستهجنًا ما بين منطق التخطيط للأشياء، والاعتقاد اللاعقلاني بأن مجرد التخطيط لها يكفي لكي يجعلها تصبح كما تصورناها ذهنياً. ومن المدهش أن نرى كيف أننا نصرّ على التمسك بهذا الاعتقاد، ونستأنس لفكرة أن الحياة يمكن تصورها ذهنياً وأنها ستجري تبعاً لتصورنا، وإسقاطاتنا، في حين أن الشيء الوحيد الأكيد -البروز المفاجئ الذي لا يمكن تجنبه لأمر طارئ، أو حادث، أو ثغرة في استمرارية مسار الوجود- هو ما نرفض التفكير فيه⁽³⁾. إننا نمتنع عن التفكير بالتهديد، والخطر الذي

(1) المرجع نفسه، ص 35-36.

(2) المرجع نفسه، ص 37.

(3) المرجع نفسه، ص 70: «تهديد القدر الذي لا مفرّ منه يخلق فوق رأس كل منا، سواء شئنا أم أبينا».

يشكّل جزءاً من حياتنا . كل منا يعتبر نفسه بمأمن ، في نوع من المفعول السحري . وكأن ذلك يشكل بنداً من بنود عقد ضمني بيننا وبين القدر .

تعيدنا حالات القطيعة التي تعبّر عن واقع الخطر الذي يحيط بكل حياة ، وخطر فقدان ، إلى هشاشتنا ، وضعفنا :

ذات يوم ، نجد أنفسنا تائهين في ممرات المستشفيات على غرار عينيّ قطة مذعورة أضاعت صغارها . ننظر ، عاجزين ، إلى هذا الجسد الصغير والبريء يصارع من أجل مجرد تمكنه من التنفّس ، وهو الجسد الصغير الذي أنجبناه بكل راحة بال . وعندها ، لا نعود ندري على من نعتمد . ولا نعود نعرف بين أيدي من قد وضعنا حياته⁽¹⁾ .

بعد الإحساس بذعر من هذا القبيل ، لا يبارحنا الخوف أبداً وبشكل كُليّ . فلقد تسرّب تحت جلدنا ، واستقرّ على سطح كياننا ، متربّصاً لأصغر إشارات تهديد جديد . كيف يمكن الاستمرار في الحياة عندها ، إذا «لم يكن هناك من لحام ليسد الثغرات»⁽²⁾ ؟

يتلو ذلك أحياناً واقعة اختفاء الشخص المنكوب ، وتراجعته ، وتلاشيّه . إذ لا يعود يحتمل ، بعد أن يصاب

(1) المرجع نفسه ، ص 81 .

(2) المرجع نفسه ، ص 49 .

بالجروح، وبعد أن هدّته الكارثة، الاتصال مع واقع لا يهادن. إذ إننا ننهار على أثر المحنة، بعد مكابدتها، وبعد طول معاناة.

تركنا القطيعة في حالة عُري، بعد أن جُرّدنا نفسياً من قوانا بحيث يصبح هذا التخلي عن الذات ضرورياً. قد يتعيّن علينا المرور في هذه الحالات من «ظلمة الهوية الشخصية»⁽¹⁾، وفي هذه اللحظات من الغياب عن الذات كي نولد ثانية بشكل مغاير في مسار الحياة وحركتها، ونجد بذلك شكلاً ما من الارتباط بالحياة والثقة بالنفس.

كيف السبيل إلى العبور «من اللحظة التي ندرك فيها أن الحياة لا يمكن أن تعاشر بشكل مضمون، إلى اللحظة التي نصبح فيها قادرين على الاستمرار في النهوض صباحاً من دون أي ضمان، ولا ثقة، ولا أمن مطلق؟»⁽²⁾.

كيف يمكن العودة إلى الوجود من دون تلك اللامبالاة التي ميّزت حياتنا حتى لحظة وقوع الكارثة، وكيف يمكن العيش في حالة من عدم التأكد، وعلى ركام ثقتنا واطمئناننا السابقين؟ وما العمل عندما تقطعنا المحنة، وتستنزف دمنا

(1) انظر Paul Ricoeur, *Soi-même comme un autre*, Seuil, coll.

«Points», 1990, p. 197. انظر أيضاً المرجع نفسه، ص 196: «من الممكن أن التحولات الأكثر دراماتيكية في الوجود، تعيّن عليها المرور بمحنة عدم الهوية هذه، وهو عدم يساوي الخانة الفارغة في التحولات».

Marion Muller-Colard, *L'Autre Dieu*, op. cit., p. 55.

(2)

وطاقتنا⁽¹⁾؟ وكيف السبيل إلى أن لا نترك أنفسنا «نغور» في عدم اليقين، وفي الخوف من حدوث مصاب آخر⁽²⁾؟ وتتساءل ماريون مولر-كولار «أين نجد شجاعة أن نكون، رغم التهديد؟»⁽³⁾.

في الفرح. أخذ المخاطرة أن نعيش يتمثل في المراهنة على الأفراح الممكنة. وأن تكون لدينا القوة كي نتدّكر، حتى في ليل المأساة، شرارة الفرح الموجودة فيه.

«نقارب العديد من المطبّات، والعديد من حالات السعد، حتى في حياة جد قصيرة. حياة ابني القصيرة الهائلة هذه التي تملأ حياتي...»⁽⁴⁾.

ومن المحتمل ببساطة كُلية أن «ابتسامة الأطفال الصغار التي تشرح صدورنا»⁽⁵⁾، هي التي تتيح لنا أن نجد من جديد القوة على مجابهة انعدام يقين الحياة، وشجاعة أن نكون.

(1) انظر المرجع نفسه، ص 31: «وبينما كان يتعين عليّ الاحتفال مع قدوم الصيف بقيامة العالم وشفاء ابني، ظللت منهكة في الظلّ، عاجزة عن انتهاز فرصة اليوم وتشغيل آلة الغسيل».

(2) انظر المرجع نفسه، ص 99.

(3) المرجع نفسه، ص 54.

(4) المرجع نفسه، ص 109.

(5) المرجع نفسه.

المراجع

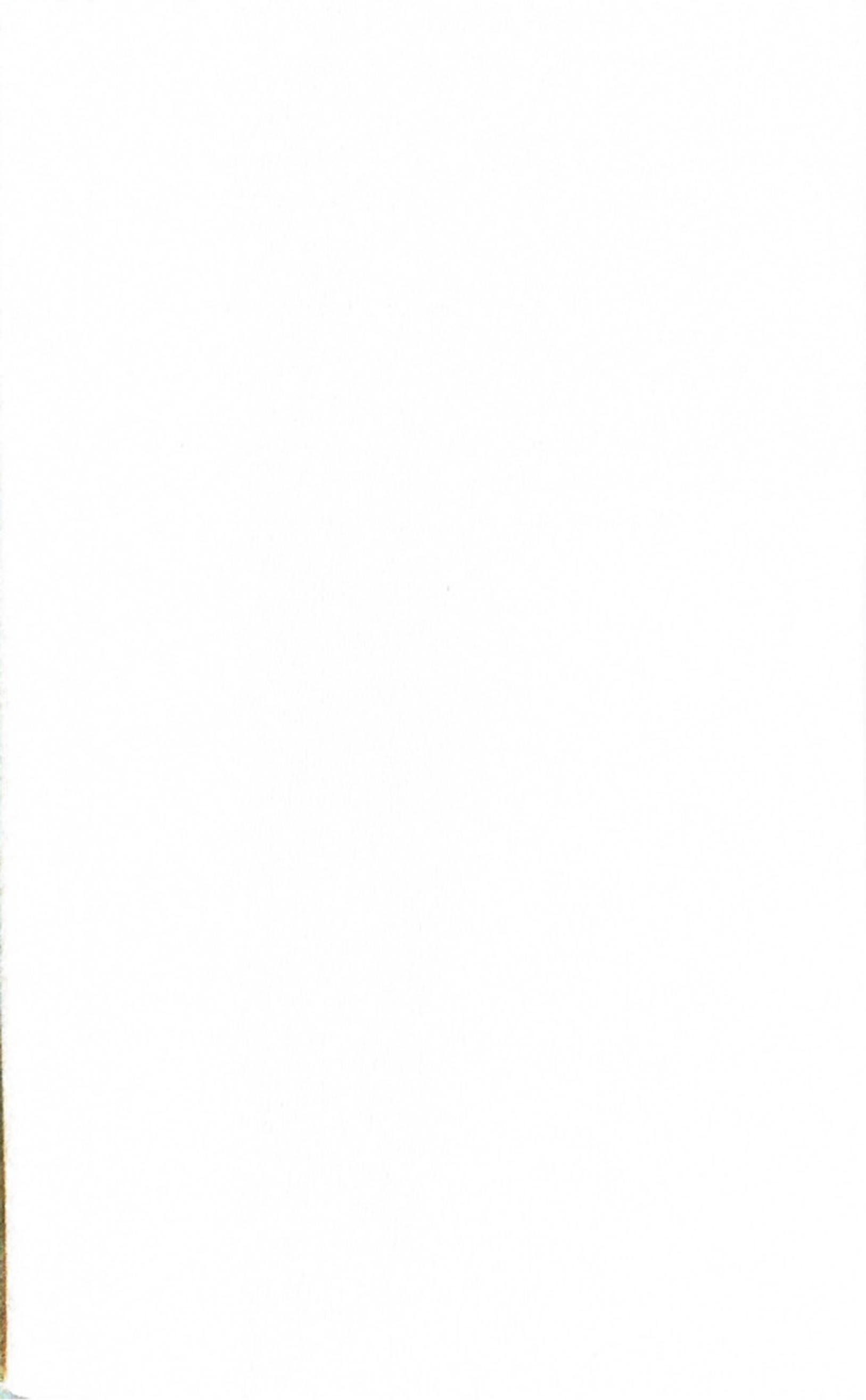
- Andreas-Salomé, Lou et Rilke, Rainer Maria, *Correspondance*, Gallimard, 1985.
- Autréaux, Patrick, *Dans la vallée des larmes*, Gallimard, 2009.
- , *Se survivre*, Verdier, 2013.
- Barthes, Roland, *Fragments d'un discours amoureux*, dans *Œuvres complètes*, t. V, 1977-1980, Seuil, 2002.
- Beauvoir, Simone (de), *La Femme rompue*, Gallimard, coll. « Folio », 2012.
- Bergson, Henri, *Conférence de Madrid sur la personnalité*, dans *Mélanges*, PUF, 1972.
- , *Matière et mémoire*, PUF, Quadrige, 1990.
- , *Le Souvenir du présent et la fausse reconnaissance*, PUF, Quadrige, 2012.
- , *Le Rire*, PUF, 2012.
- Bergounioux, Pierre, *Exister par deux fois*, Fayard, 2014.
- Birman, Chantal, *Au monde. Ce qu'accoucher veut dire*, Seuil, coll. « Points », 2009.
- Bobin, Christian, *La Part manquante*, Gallimard, coll. « Folio », 1994.
- Bouillier, Grégoire, *Le Dossier M*, Gallimard, t. I, 2017, t. II, 2018.
- Butor, Michel, *La Modification* [1957], Éditions de Minuit, coll. « Double », 1980.

- Canguilhem, Georges, *Le Normal et le Pathologique*, PUF, coll. « Quadrige », 2013.
- Chabert, Catherine, *Maintenant, il faut se quitter*, PUF, 2017.
- Cohen, Albert, *Belle du seigneur*, Gallimard, 1968.
- Cocteau, Jean, *La Voix humaine*, Stock, 2002.
- Delabroy-Allard, Pauline, *Ça raconte Sarah*, Éditions de Minuit, 2018.
- Deleuze, Gilles et Parnet, Claire, *Dialogues*, Flammarion, coll. « Champs », 2008.
- , *L'Épuisé*, postface à Beckett, Samuel, *Quad*, Éditions de Minuit, 1992.
- , *Critique et clinique*, Éditions de Minuit, 1999.
- Delecroix, Vincent, *Ce qui est perdu*, Gallimard, coll. « Folio », 2009.
- et Forest, Philippe, *Le Deuil*, Philosophie Éditions, 2015.
- , *Non ! De l'esprit de révolte*, Autrement, 2018.
- Dufourmantelle, Anne, *Puissance de la douceur*, Payot & Rivages, 2013.
- , *En cas d'amour*, Payot & Rivages, 2013.
- , *Se trouver*, JC Lattès, 2014.
- , *Éloge du risque*, Payot & Rivages, 2014.
- , *La Sauvagerie maternelle*, Payot & Rivages, 2016.
- Duras, Marguerite, *Le Ravissement de Lol V. Stein*, Gallimard, coll. « Folio », 1998.
- , Lettre de rupture à Yann Andréa, 23 décembre 1980.
- , *L'Amant*, Gallimard, 1984.
- , *La Vie matérielle*, P.O.L, 1987.
- During, Élie, « Introduction » dans, Henri Bergson, *Le Souvenir du présent et la fausse reconnaissance*, PUF, coll. « Quadrige », 2012.

- Duroy, Lionel, *Le Chagrin*, J'ai lu, 2011.
- Ehrenberg, Alain, *La Fatigue d'être soi*, Odile Jacob, 1998.
- Eribon, Didier, *Retour à Reims*, Flammarion, coll. « Champs », 2018.
- Ernaux, Annie, *Passion simple*, Gallimard, coll. « Folio », 1991.
- , *Se perdre*, Gallimard, coll. « Folio », 2001.
- , *Mémoire de fille*, Gallimard, coll. « Folio », 2016.
- , *Écrire la vie*, Gallimard, coll. « Quarto », 2011.
- Fitzgerald, Francis S., *La Fêlure*, Gallimard, coll. « Folio », 2014.
- Flem, Lydia, *Comment j'ai vidé la maison de mes parents*, Seuil, 2004.
- , *Comment je me suis séparée de ma fille et de mon quasi-fils*, Seuil, 2009.
- Forest, Philippe, *Le Nouvel Amour*, Éditions de Minuit, 2007.
- Freud, Sigmund, *Deuil et mélancolie*, Payot, « Petite bibliothèque », 2011.
- Gestern, Hélène, *Un vertige suivi de La Séparation*, Arléa, 2017.
- Gobeil-Noël, Madeleine et Lanzmann, Claude, *Sartre inédit. Entretiens et témoignages*, entretien à la télévision *Radio Canada* (15 août 1967), DVD, Nouveau Monde éditions, 2005.
- Hornby, Nick, *Haute fidélité*, 10/18, 1995.
- Jaquet, Chantal, *Les Transclasses ou la Non-reproduction*, PUF, 2014.
- Juliet, Charles, *Attente en automne*, P.O.L, 1999.
- , *Lambeaux*, Gallimard, coll. « Folio », 2005.
- , *L'Année de l'éveil*, Gallimard, coll. « Folio », 2006.
- , *Dans la lumière des saisons*, P.O.L, 1991.
- Kafka, Franz, *La Métamorphose*, Gallimard, coll. « Folio », 1989.

- Kierkegaard, Søren, *L'Alternative. Le Journal du séducteur*, Gallimard, coll. « Folio », 1989.
- , *La Reprise*, Flammarion, coll. « GF », 2008.
- Kundera, Milan, *Risibles amours*, Gallimard, coll. « Folio », 1986.
- Le Breton, David, *Disparaître de soi*, Métailié, 2015.
- Malabou, Catherine, *Ontologie de l'accident*, Léo Scheer, 2009.
- Malherbe, Michel, *Alzheimer. La vie, la mort, la reconnaissance*, Vrin, 2015.
- Mauvignier, Laurent, *Apprendre à finir*, Éditions de Minuit, 2009.
- Michaux, Henri, *Bras cassé*, Fata Morgana, 2009.
- , *Plume*, Gallimard, 1963.
- Muller-Colard, Marion, *L'Autre Dieu. La Plainte, la Menace et la Grâce*, Labor et Fides, 2015.
- , *Le Jour où la Durance*, Gallimard, coll. « Sygne », 2018.
- Neruda, Pablo, *Vaguedivague*, Gallimard, 1971.
- Nietzsche, Friedrich, *Seconde considération intempestive*, Flammarion, coll. « GF », 1988.
- O'Connor, Flannery, *Œuvres*, Gallimard, coll. « Quarto », 2009.
- Pontalis, J.B., *Se perdre de vue*, Gallimard, coll. « Folio », 1999.
- , *En marge des nuits*, Gallimard, 2013.
- , *Marée basse, marée haute*, Gallimard, coll. « Folio », 2014.
- , *Œuvres*, Gallimard, coll. « Quarto », 2015.
- Potte-Bonneville, Mathieu, *Recommencer*, Verdier, 2018.
- Ricœur, Paul, *Soi-même comme un autre*, Seuil, coll. « Points », 1996.
- Rosenthal, Olivia, *On n'est pas là pour disparaître*, Verticales, 2007.

- Rosset, Clément, *Loin de moi*, Éditions de Minuit, 2000.
- , *Tropiques. Cinq conférences mexicaines*, Éditions de Minuit, 2010.
- Spinoza, *Éthique*, Flammarion, coll. « GF », 1993.
- Schütz, Alfred, *L'Étranger*, suivi de *L'homme qui revient au pays*, Allia, 2003.
- Valéry, Paul, *Œuvres*, Gallimard, coll. « Bibliothèque de la Pléiade », t. I, 2002.
- Wauters, Antoine, *Pense aux pierres sous tes pas*, Verdier, 2018.
- Winnicott, Donald, *Conversations ordinaires*, Gallimard, coll. « Folio Essais », 1988.



كلير ماران

القطيعة

«إن القطيعة، أياً كان نوعها وأياً كانت ظروفها، لا تمرُّ مرور الكرام، وكأنها حدثٌ من أحداث الحياة الشائعة. إنها تترك آثارها وحتى بصماتها عميقاً في نفس كلٍّ من الفاعل والضحية على حدٍّ سواء. المؤلفة كلير ماران هي فيلسوفة وأستاذة فلسفة في الآن عينه. وتُظهر في عملها هذا قدرة فريدة على الغوص في النفس البشرية وأحوالها ومعاناتها، بحيث تكشف للقارئ عن جوانب خفية ممّا يعيشه، أو ممّا شهده عند المحيطين به، دون أن يستوعبه معرفياً وعقلياً، وإنما هو يعاني آثاره على شكل أزمة كيانية فعلية تعتمل في نفسه بالخفاء، ولا يطفو منها على السطح سوى مشاعر المعاناة.

من هنا أهمية هذا العمل محدود الحجم عظيم الكشف بالنسبة إلى القارئ العربي، ما يشكّل إسهاماً غير مسبوق في إغناء المكتبة العربية، إذ يُسلّط أضواءً تذهب في العمق على موضوعٍ يشكّل جزءاً لا يتجزأ من الحياة ذاتها عند مختلف شرائح البشر على اختلاف السنّ والجنس. ويفتح آفاقاً أمام القارئ العربي في التمكين المعرفي بأحوال العلاقات الوجدانية والحميمة، بما يجعله أكثر وثوقاً في خطواته. فالمعرفة بأحوال النفس وعلاقاتها تشكّل أحد أبرز مقوّمات القوة».

الدكتور مصطفى حجازي

ISBN 978-9920-657-36-5



9 789920 657365

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب. 4006 (سبنا)
markaz.casablanca@gmail.com